رَدُّ المتشابه إلى المحكم

مِنَ الآيات القرآنيّة والأحاديث النبويّة

تأليف

الشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن علي بن محمد

ابن عربي الحاتمي

المتوفى ٦٣٨هـ

اعتنى به

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد بذاته وصفاته. المنزّه في أحديته عن مشابهة مخلوقاته. وصلواته على محمد عبده ورسوله، الموضح بسنته متشابه آياته. الباقي مدده لأوليائه بعد مماته كما كان لهم في حياته. على آله وصحبه الذين كان أحدهم إذا زاره في قبره سلّم عليه، ورفع يديه كما كان يرفعهما عند افتتاح صلاته وسلّم تسليماً كثيراً.

وبعد: فقد سألتني - أرشدني الله وإيّاك - عن أمر عظيم في هذا الزمان خطبه وعمّ ضرره، وهو ما تظاهر به بعض المبتدعة المنتسبين زوراً وبهتاناً إلى الحديث والفقه، وأشاعه في العامة والخاصة من اعتقاد ظواهر الآيات المتشابهة في أسمائه تعالىٰ وصفاته، من غير تعرض لصرفها عما لا يليق بجلاله وكبريائه، ويوهم التشبيه والتجسيم، ويزعم أنه في ذلك متمسك بالكتاب والسنة، وماش في طريقة السلف الصالح، ويشنع على من تعرض إلى شيء منها بتأويل، أو صرفه عن ظاهره بدليل، إلى ما تعارف في عرف العرب الذين نزل القرآن بلغتهم، وبنسبة في ذلك إلى مخالفة الصحابة والتابعين رضوان الله علهيم أجمعين، لكونهم ما نقل عنهم التعرض لشيء من ذلك، وقد ضلّ وأضل كثيراً، وما يضل به إلاّ من هو قاصر الفهم ضعيف النور.

وحيث سألتني عن ذلك، ورغبت في إملاء شيء عليك، فلا بد من الإجابة على سبيل النصيحة لله تعالى ولرسوله ﷺ، ولأئمة المسلمين وعامتهم رضي الله عنهم أجمعين.

فاعلم - أمدني الله وإيّاك بمدد توفيقه - أن من أجل منح الله تعالى على عبده: طهارة قلبه وسلامة فطرته، وقلة منطقه، فإنه بذلك يلقن الحكمة، ويسمع هواتف الحق في كل نفس من أنفاسه، ويضيء له في ليل المتشابه مصباح المحكم، فيرسخ قدم صدقه في معرفة ربه سبحانه، ويحيي بلده الطيب بغيث الهدى والعلم، فيخرج نباته بإذن ربه ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥] ويسلك بنحل أفكاره سبل الاستقامة، فيخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس.

وقد كان للصحابة رضي الله عنهم من هذا المشرب أصفاه وأعذبه، ومن العلم بالكتاب والسنة أزكاه وأطيبه، وكيف لا يكونون كذلك وقد تليت عليهم آيات الله وفيهم رسوله، ولهم من الاعتصام بالله ما ضمنت لهم به الهداية والاستقامة ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١] يعلمون الناسخ والمنسوخ بالمعاصرة، وأسباب النزول بالوقائع، ويفهمون ما أودع في مواقع التركيب وأساليب البيان بالطباع، يردون ما اختلفوا فيه إلى الله والرسول، فيعلمه الذين يستنبطونه منهم، وهم الراسخون في العلم وأولو الأمر، يتدبرون القرآن ويردون المتشابه إلى معنى المحكم، ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] فلا اختلاف فيه ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] ولأجل ذلك لم ينقل عنهم اعتناء بإيضاح آيات الأسماء والصفات، ولا أكثروا السؤال عنها بعدم أشكالها بحسب لغتهم، ولاتساع مجال أفهامهم في معانيها الصحيحة، وكان من أدبهم رضي الله عنهم أن لا يثق أحد بفهمه في استيعاب المراد منها، فسكتوا عنها مفوضين إلى كل فهم صحيح ما منحه الله تعالى من الاتساع الموافق للغة والآيات المحكمة، كما في صحيح البخاري وغيره عن أبي جحيفة قال: «قلت لعلي رضي الله عنه: هل عندكم كتاب؟ قال: لا، إلا كتاب الله، أو فهم أعطيه رجل مسلم، أو ما في هذه الصحيفة».

وفي بعض الروايات «إلاّ ما يعطيه الله عبده فهماً في القرآن»[1] فلما انقطع بموته ﷺ عن ظواهر الأسماع مدد روح الوحي، وعفت عهود الوقائع بانقراض علماء الصحابة رضي الله عنهم، وضعف استنباط المتشابه من المحكم بمخالطة النبط وانعجم المعنى الواضح بملابسة العجم، وحصل التمريج في القلوب فزاغت وحجبت عن هواتف الغيب، وكثر الكلام فيما لا يعني، فقلّ أبناء الحكمة، فهنالك ظهرت أرباب البدع، وأشكل معنى المتشابه، فاتبعه من في قلبه زيغ، وكاد الأمر يلتبس لولا ما أيد الله به هذه الأمة من العلماء الوارثين، والسلف الصالح، فنهضوا لمناظرة أرباب البدع، وتخطئتهم، وحل شبههم، ونهوا الناس عن اتباعهم وعن الإصغاء إليهم، وعن التعرض بالآراء للمتشابه، وحسموا مادة الجدال فيه والسؤال عنه، سداً للذريعة واستغناء عنه بالمحكم، وأمروا بالإيمان به وبإمراره كما جاء من غير تعطيل ولا تشبيه وكان هذا في عصرهم مغنياً، لولا أن المبتدعة دوّنوا بدعهم ونصبوا عليها أشراك الشبه والأهواء المضلة، فوفق الله الراسخين من علماء السنة فدوّنوا في الرد عليهم

(١) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب كتابة العلم، حديث رقم (١١١).

الكتب الكلامية، وأيدوها بالحجج العقلية والبراهين المنيرة من الكتاب والسنة، إلى أن أظهر الله الحق على ألسنتهم، وقمع أهل الباطل والزيغ، وأطفأ نار البدع والأهواء، فجزاهم الله عن نصيحة هذه الأمة أفضل الجزاء.

ولنشرع في بيان ما سألته على سبيل الإجمال، ثم على سبيل التفصيل:

فاعلم - هداني الله وإيّاك لما اختلف فيه من الحق بإذنه - أن ربناسبحانه وتعالى: حي، متكلم، عالم، مريد، قدير ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] أحدي فلا أين، ولا تركيب لذاته، أزلي فلا كيف ولا ترتيب لصفاته، أبدي فلا تناهي لجلاله وإكرامه، تنزه في سمعه وبصره وإدراكه وبطشه عن الجوارح، وعزّ في قدرته عن الشريك والمعين، وجلّ في إرادته عن الأغراض، وتفرّد في كلامه عن الحروف والأصوات، وتعالى في استوائه عن التشبيه والكون، وتقدس في علوه وفوقيته عن الجهات، ينزل بلا نقلة، ويجيء ويأتي بلا حركة، وتراه أبصار المؤمنين بلا إدراك ولا إحاطة، لا حد لقربه، ولا ميل لحبه، ولا ثورة لغضبه، ولا كيف له في رضاه وضحكه، ولا شفعية إلاّ لمعيته، ولا وترية إلاّ بظهور قهره وأحديته، ولا بقاء إلاّ لأهل عنديته.

نفسه تعالى: ذاته وأم كتابه.

ووجهه: نور توحيده عند إقباله.

وصورته: مظاهر تعرفاته.

وظلل غمامه، ويده، ويداه، وأيديه: أسماء حقائق، يتصرف بها في مخلوقاته.

وعينه، وأعينه: آياته المبصرة القائمة بالحفظ والرعاية للمخصوصين من عباده.

وقدمه: قدم الصدق الذي بشر به عباده المؤمنين.

وجنبه: صحبته وكلاءته للذاكرين من أتباع النبيين.

وهو الأول والآخر: فما من عرض ولا جوهر إلاّ هو مبدوء بأوليته، مختوم بآخريته.

وهو الظاهر: بحكمه في محكمه، الباطن بعلمه في متشابه آياته وحكمه.

ظهر بمعيته في باطن وتريته فنشأت أعداد مصنوعاته، وبطن بقدم أحديته في أسماء الحوادث، فرجعت بحقائق هوياتها إليه ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

لا شريك له في ملكه، وهو يؤتي الملك من يشاء، ولا مثل له في كنهه «وله المثل الأعلى» تقدس عن النظير في الدنيا والآخرة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] وتنزه عن الجهات ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ [الأنعام: ٣] وتعالى عن التشبيه، وله الآيات المتشابهات، يجتني معانيها أهل قربه في رياض جنات ذكره، ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

هذا ما فتح الله به: على سبيل الإجمال.

وأما التفصيل: فلنقدم عليه مقدمة تكون بمثابة القاعدة والتمهيد له، وهو: أنه ليس في الوجود فاعل إلاَّ الله، وأفعال العباد بجملتها ـ عند أهل السنة والجماعة ـ منسوبة الوجود والاختراع إلى الله تعالى، بلا شريك ولا معين، فهي على الحقيقة فعله، وله بها عليهم الحجة ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء؛ ٢٣].

ومن المعلوم أن أفعال العباد لا بد فيها من توسط الآلات والجوارح، مع أنها منسوبة إليه وبذلك يعلم أن لصفاته في تجلياتها لعباده مظهرين: مظهر عادي سفلي، منسوب لعباده، وهو الصور والجوارح الجسمانية ومظهر حقيقي علوي منسوب إليه، وقد أجرى عليه أسماء المظاهر السفلية المنسوبة لعباده على سبيل التقريب لأفهامهم، والتأنيس لقلوبهم، ونبّه تعالى في كتابه على القسمين، وأنه سبحانه منزّه عن الجوارح في الحالين، فنبّه على الأول بقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤] وذلك يفهم أن كل ما ظهر على أيدي العباد، فهو منسوب إليه، وفعل له، وأن جوارحنا مظهر له، وواسطة فيه، فهو على الحقيقة الفاعل، بجوارحنا، مع القطع الضروري لكل عاقل، أن جوارح العبد ليست جوارح لربنا تعالىٰ، ولا صفات له.

ونبّه على الثاني بقوله فيما أخبر به نبيه ﷺ في صحيح البخاري: «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها»[١] الحديث.

وقد حقق الله لنبينا ﷺ ذلك بقوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ١٠٤] بعد قوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] وبقوله عزّ من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ

(١) كتاب الرقاق، باب التواضع، حديث رقم (٦٥٠٢). والحديث أخرجه غير البخاري.

﴿أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] فنزل يد نبيه منزلة يده في المبايعة وأخذ الصدقات والرمي في قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] وذلك كله يفهم أن العبد إذا صار محبوباً صارت أفعاله ناشئة عن أنوار علوية روحانية من عند ربه، تكون له بمثابة الجوارح، وأن الله سبحانه يكون له بواسطتها سمعاً وبصراً ويداً ورجلاً، مع القطع الضروري أن الله سبحانه لا يكون جارحة لعبده، ولكن سر الأمر في تحقيق ذلك: أن الله جلّت حكمته ضرب لنفسه في دوائر ملكه مثلاً بالقلب في دائرة بدنه، ومن المعلوم لكل أحد: أن المتصرف في دائرة بدنه هو قلبه، ونور شامل لجميع أجزائه، وروح الحياة منه شائعة في سائر أقطاره، وأن الجوارح مظاهر لأنوار القلب وتصرفاته، فبنوره تبصر العين، وتسمع الأذن، ويشم الأنف، ويذوق اللسان وينطق، وتلمس الجوارح وتبطش، مع العلم الضروري بأن الجوارح صفات للبدن، وليست صفات للقلب، ولا تعلق لها به، ولا تنسب إليه إلاّ نسبة الأتباع والعبيد للملك المطاع.

ثم أن القلب إن غلب عليه التوجه إلى عالم الشهادة تصرف بالجوارح، فصار يرى بالعين، ويسمع بالأذن، ويبطش باليد، وهو مثل قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤] وإن غلب على القلب التوجه إلى عالم الغيب استتبع الجوارح، فصارت هي متصرفة به، فتصير العين تبصر بالقلب، وكذلك باقي الحواس والجوارح، وهو مثل قوله: «كنت سمعه الذي يسمع به»[1] إلى آخره فافهمه، فإنه بديع، وسيأتي إن شاء الله في التفصيل ما يؤيده ويزيده وضوحاً، وبهذا يتسع لك فهم ما جاء من الجوارح منسوباً إلى أفعاله تعالى وصفاته، فلا تشتبه بعد هذا عليك، ولا تفهم من نسبتها إليه تشبيهاً ولا تجسيماً، بل تفهم أن مثل النسبة إليه فيها كمثل نسبة الجوارح للقلب، وأن ذاته المقدسة متعالية عن الاتصاف بها لأن الجوارح يلزمها الحدوث، وذاته تعالى واجبة القدم، وكل ما كان واجب القدم: استحال عليه العدم.

وإنما الروح الأصلي الذي هو منشأ عالم الأمر هو مصباح نور التوحيد، قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [النحل: ٢] وبهذا الروح يتجلى سبحانه لعباده بأسمائه وصفاته المحكمة والمتشابهة.

---

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

ومن المعلوم أنه قد ثبت قوة التطور في الصور المختلفة للملائكة، وهم من رقائق هذه الروح، فلأن يكون له قوة التجلي بأي صورة شاء أولى، وتصح نسبة تلك الصورة إلى الله لتجليه فيها، كما سيأتي تحقيقه في صفة المجيء والصورة وغيرها.

وها أنا إن شاء الله تعالى أشرع في تفصيل الصفات المتشابهة، وليس المقصود ذكر البراهين التي هي مدونة في الكتب الكلاميّة، وإنما المقصود «رد المتشابه إلى المحكم» على القواعد اللغوية، وعلى مواضعات العرب، وما كان يفهمه الصحابة والتابعون من الكتاب والسنة، وتلويحات وتصريحات من الكتاب والسنة.

هذا تمام المقدمة، ولنشرع في التفصيل، مع بسط يد الفاقة والافتقار، عسى أن يهديني ربي سواء السبيل.

فصل الصورة

من المتشابه في الآيات التي يذكر فيها الصورة، والأولى تقديمها، لأنها اسم جامع لباقي الحقائق في غيرها، فما يصح في ذلك ما رواه البخاري وغيره من حديث الرؤية عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه «فيأتيهم ربهم في غير الصورة التي يعرفونها، فيقول: أنا ربكم، فيقولون نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا أتى ربنا عرفناه، فيأتيهم في الصورة التي يعرفون، فيقول أنا ربكم، فيقولون: نعم، أنت ربنا فيتبعونه»[1] وقد ثبت ذكر الصورة في حديث أبي سعيد أيضاً، وهو من الأحاديث المتشابهة، ومرجعها إلى الآيات والأحاديث المحكمة، وكل من له من الله نور، له في مرجعها إلى المحكم فهم على حسب نوره.

ونحن إن شاء الله نذكر مبلغ علمنا وفهمنا فيه، ونسأل الله أن يهدينا لما اختلف فيه من الحق بإذنه.

فاعلم: أن للصور التي يأتي فيها ربنا يوم القيامة حقيقة ومظهراً، فالحقيقة هي الظلة في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠] فعلم بذلك: أن مظاهر تجليه لعباده هي ظلل غمامه، وحقائق هذه الظلل آياته التي تعرف لخلقه فيها بواسطة أنبيائه.

وقد ثبت في الصحيح تشخص حقائق آياته، كالظل، ففي مسلم وغيره من حديث أبي أمامة، وحديث النواس بن سمعان أن القرآن يوم القيامة يأتي تقدمه البقرة وآل عمران كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوتان[2].

---

(١) الصحيح، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢...﴾ حديث رقم (٧٤٣٧ وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، حديث رقم (٢٩٩ ـ ١٨٢) ولفظه: «فيأتيهم الله تبارك وتعالى في صورة غير صورته التي يعرفون فيقول أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاء ربنا عرفناه فيأتيهم الله تعالى في صورته التي يعرفون فيقول أنا ربكم فيقولون أنت ربنا فيتبعونه».

(٢) ولفظه كما أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح، عن نواس بن سمعان عن النبي ﷺ قال: «يأتي القرآن وأهله الذين يعملون به في الدنيا تقدمه سورة البقرة وآل عمران» قال نواس: وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد قال: «تأتيان كأنهما غيابتان وبينهما شرف أو كأنهما غمامتان سوداوان أو كأنهما ظلة من طير صواف تجادلان عن صاحبهما» (كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في سورة آل عمران، حديث رقم ٢٨٨٣).

ومن المعلوم أن كلامه صفته، وصفته لا تفارقه.

فإذا ثبت إتيانهما فيّ صورة ظل الغمام، ثبت إتيانه.

وفي مسلم وغيره: «أن أسيد بن حضير رضي الله عنه قرأ سورة الكهف ليلة، فجالت فرسه فإذا مثل الظلة فوق رأسه، فيها أمثال السرج، فسأل النبي ﷺ فقال: إن السكينة تنزلت للقرآن»[(١)].

وفي رواية الترمذي «مع القرآن». وفي رواية «تلك الملائكة كانت تسمع لك» وذلك كله موافق لآية البقرة، ونفرة الفرس دليل على أنها ظلة محسوسة، وقد ثبت رؤيا النبي ﷺ للظلة، وتأويل أبي بكر رضي الله عنه لها بالإسلام، وذلك كله يحقق أن حقائق الظلل هي: آيات الله وشرائعه، وهي من الروح، كما قدمته لك، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢] الآية.

والظلة قسمان: ظلة عذاب، وظلة رحمة.

وظلة العذاب: كظلة قوم شعيب في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾ [الشعراء: ١٨٩] وقد ضرب الله سبحانه المثل بذلك في القرآن، في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة: ١٩] الآية.

وأما ظلة الرحمة: فهي آياته المقتضية للرحمة، النازل غيثها على قلوب المؤمنين. كما صحّ في البخاري ومسلم وغيرهما، وقوله ﷺ: «إن مثلي ومثل ما بعثت به من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضاً» الحديث، فهذا هو مظهر الحقيقة.

وأما مظهر الصورة فهو العمل.

وقد ثبت تشخيص الأعمال بصور شتى، كما في حديث البراء رضي الله عنه بإسناد صحيح، أخرجه المسانيد كالإمام أحمد وغيره: «إن الميت المؤمن يفسح له في قبره مد بصره، ويمثل له عمله في صورة رجل حسن الوجه، طيب الريح، حسن الثياب، فيقول له: من أنت؟ فيقول له: أنا عملك الصالح، وإن الفاجر يمثل له عمله في صورة رجل قبيح الوجه، منتن الريح، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا عملك» الحديث، وقد صح تمثيل الموت بصورة الكبش، وتمثيل المال بصورة الشجاع

---

(١) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب نزول السكينة لقراءة القرآن، حديث رقم [٢٤٠ ـ (٧٩٥)].

الأقرع، وتمثيل الملائكة صلوات الله وسلامه عليهم بصورة الآدميين، والسنة مشحونة بنحو ذلك، ومن المعلوم أن الأعمال أعراض، فإذا ثبت ظهورها وتمثلها بصورة الجواهر والأجسام، مع القطع بأنها ليست جسماً ولا جوهراً، وأن الملائكة ليسوا بآدميين، فعلى مثل ذلك قس إتيان ربنا سبحانه في صورة الأعمال، فالمقصود من ذلك كله تقريب المراد إلى الأفهام، وهو شائع في اللغة معروف في مواضعات العرب واستعمالاتهم، وإنه لا يلزم من إتيانه في صورة الأعمال أن يكون له تعالى صورة، ولا يلزم من نسبتها وإضافتها إليه أن تكون ذاتية له، كما قد ثبت نسبة اليدين والركبتين إلى جبريل عليه السلام، في حديث عمر رضي الله عنه، عند مسلم وغيره، في قوله: «طلع علينا رجل شديد بياض الثياب» إلى قوله: «فأسند ركبتيه» الحديث[1].

ومن المعلوم: أن الركبتين واليدين التي جاء بها جبريل جسمانيات وليست ذاتية له.

وبهذا يعلم: أن رؤية العباد لربهم يوم القيامة مختلفة النعيم.

فكل يراه في صورة عمله، على حسب مراقبته وإخلاص توجهه إليه وصدقه في إقباله عليه.

تنبيه: إذا علمت أن حقيقة الصورة آياته التي تعرف بها إلى خلقه، فنزل على ذلك ما صح من أن الله خلق آدم على صورته فإن الإنسان قد جمع الله فيه كل حقائق الكائنات، فكان مظهراً لآياته الكبرى، الجامعة لجميع حقائق الآيات، المتجلية لخلقه بجميع أنواع الأسماء والصفات، فلذلك قبل تعليم الأسماء، وسجدت له ملائكة الأرض والسماء، أي أن الله خلقه على المثالية القابلة لتجلي صورة آيته الكبرى، وهي التي أريها سيدنا محمد ﷺ ليلة الإسراء، وحققها «روح لا إله إلاّ الله».

تنبيه: قد جاء في الجامع لأبي عيسى الترمذي: أن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة سوقاً لا فيها بيع ولا شراء، إلاّ الصور من الرجال والنساء، فإذا أراد الرجل صورة دخل فيها»[2] قال الترمذي: حديث غريب.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث رقم [١ ـ (٨)] وصحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان... حديث رقم (٥٠).

(٢) وأخرجه أحمد في المسند بلفظ عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن في الجنة سوقاً ما فيها بيع ولا شراء إلا الصور من النساء والرجال فإذا اشتهى الرجل صورة دخل فيها وإن فيها لمجمعاً للحور العين يرفعن أصواتاً لم يرَ الخلائق مثلها يقلن نحن الخالدات فلا نبيد ونحن الراضيات فلا نسخط ونحن الناعمات فلا نبؤس فطوبى لمن كان لنا وكنا له». (المسند، حديث رقم (١٣٤٢) [ج١ ص١٥٦].

وإذا نزلته على ما قرّرناه، علمت أن تلك الصورة: حقائق آيات من آيات أسمائه وصفاته تعالى وأخلاقه، فما من آية منها تخلق بها العبد في الدنيا، إلاّ وقد تعرف الله إليه بها، فإذا دخل الجنة ورآها في سوق المعرفة عرفها، فدخل فيها، فكانت زيادة في معرفته بربه، وتجليه له فيها بنعيم رؤيته.

فإن قلت: فما معنى قوله: «إلاّ الصور من الرجال والنساء» وما مناسبة الرجال والنساء لصور آيات الصفات والأسماء؟

قلت: ما من آية يتخلق بها العبد إلاّ وقد اشتقها الله من اسمه الرحمٰن، للرحمة الإيمانية، وانتقلت إليه إرثاً من أب إيماني أو أم إيمانية ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦] وهو أب لهم فلعل هذا معنى قوله: «من الرجال والنساء».

فصل الوجه

ومنها صفة الوجه، وقد جاء ذكره في آيات كثيرة، فإذا أردت أن تعرف حقيقة مظهره من الصورة، فاعلم أن حقيقته من غمام الشريعة: بارق نور التوحيد، ومظهره من العمل وجه الإخلاص ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ [الروم: ٣٠] ويدل على أن وجه الإخلاص مظهره قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢] وقوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩] وقوله: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [الليل: ٢٠] والمراد من ذلك كله الثناء بالإخلاص على أهله تعبيراً بإرادة الوجه عن إخلاص النية، وتنبيهاً على أنه: مظهر وجهه، سبحانه، ويدل على أن حقيقة الوجه هو بارق نور التوحيد، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] أي إلاّ نور توحيده، وهو نور السموات والأرض، بدليل قوله ﷺ: «أعوذ بوجهك الذي أشرقت به الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة» وبهذا يفهم سر قوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

تنبيه: قوله ﷺ في حديث الرؤية «فيأتيهم ربهم في غير الصورة التي يعرفون»[(١)] أي في ظلمة آيات العذاب، ومظهر الأعمال السيئات، فيقولون: نعوذ بالله منك، فيستعيذون بالله من تلك الصورة، كما كانوا في الدنيا ينكرونها ويستعيذون منها.

وقوله: «فيأتيهم في الصورة التي يعرفون»[(١)] أي في مظهر أعمال البر، وظلة

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

صفة الرحمة والنبوة التي كانت تحيي قلوبهم بغيث الهدى والعلم، فيقولون «أنت ربنا» يعرفونه بواسطة تعرفه لهم في الدنيا، تحقيقاً لقوله ﷺ: «أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة»[1].

فصل الرؤية

ومنها صفة الرؤية، وقد جاء في غيرما آية، وفي أحاديث منها هذا الحديث: قوله ﷺ: «هل تضارون في رؤية القمر»[2] وفي رواية «في رؤية الشمس».

فإذا ثبت تجليه تعالى في صورة روح الشريعة، لم يبق في رؤيته إشكال، وإنما عبّر بالقمر والشمس عن حقيقة الوجه، وهو نور التوحيد.

واختلاف الروايتين يجوز أن يكون تنبيهاً على اختلاف درجات الرائين في نعيم الرؤية، والمقصود: أن آيات الله: تتضح لعباده، فلا يكون بينهم وبينها حجب تمنعهم عن استكناه كنهها، والوقوف على بدائعها، ويجوز أن يكون باعتبار الرؤية في البرزخ في وجوده كالليل، وآيته القمر، والآخر كالنهار، وآيته الشمس.

قوله: «ليس دونها سحاب» فيه ترقية لأهل المراقبة، وذلك لأن غالب أهل المراقبة لا يشهدون بقلوبهم عند العبادة والمراقبة إلاَّ ظلل آيات الشريعة، ويحجبون بسحابها عن شهود وجه ربهم، وهو نور توحيده، فإذا كان يوم القيامة: كشف الغطاء واحتد البصر، فيرون وجه ربهم كشمس ليس دونها سحاب الأعمال، ولا ظلل غمام الشرائع، بل هو أقرب إليهم من أعمالهم ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦] الآية.

تنبيه: وقد أنكر القاضي أبو بكر بن العربي في «الأحوذي» ثبوت نعيم الرؤية في الموقف، وقال: إن نعيم الرؤية لا تكون إلاَّ للمؤمنين في الجنة، وإن ما جاء من الرؤية في الموقف إنما هو على سبيل الامتحان والاختبار.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، فصل في توقير العالم...، حديث رقم (٤٢٩) [ج ص٢١٣]. والطبراني في المعجم الكبير عن أبي عثمان النهدي عن سلمان حديث رقم (٦١١٢).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، حديث رقم (٦٣٣). والبخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، حديث رقم (٥٥٤). وأخرجه غيرهما.

والذي نعتقده: ثبوت الرؤية ونعيمها للمؤمنين في الموقف ـ على ما صح في الحديث ـ وذلك صريح في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

تنبيه: لوجه ربنا سبحانه وتعالى رداء، وله حجب، وله سبحات.

فأما رداؤه فقد نبّه عليه ﷺ في حديث عبدالله بن قيس، عن أبيه «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب: آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلاّ رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»[١] فالرداء ههنا ـ والله أعلم ـ هو ما يحجب القلوب عن رؤية الرب، وهو أن يكون في قلبك كبرياء لغيره، فأهل الجنة ليس لهم مانع من نعيم الرؤية وشهود نور التوحيد، إلاّ رداء الكبرياء، فمن كبر في قلبه غير الله، من غرف أو تحف أو قصور، أو حور أو مأكول أو مشروب، أو شيء سواه حجب عن الله، ومن عرف الله صغر عنده كل شيء، فارتفع عن بصيرته رداء الكبرياء لكل شيء، فشهد الله في كل شيء.

وبهذا يظهر لك سر افتتاح الصلاة بالتكبير، لأن الصلاة حضرة التجلي والمناجاة، والمراقبة لأنوار سبحات وجهه سبحانه وتعالى.

إثبات: صحّ في الحديث الصحيح أن غراس الجنة: سبحان الله، والحمد لله[٢].

وفي الحديث «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قيل: وما رياض الجنة؟ قال: حلق الذكر»[٣].

وفي ذلك إشارة إلى أن نعيم الرؤية يحصل لأرباب القلوب في رياض جنة الأذكار، وعند المراقبة، وارتفاع رداء الكبرياء عن وجه التوحيد.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين...، حديث رقم [٢٩٦ ـ (١٨٠)]، والبخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ حديث رقم (٤٨٧٨)، وأخرجه غيرهما.

(٢) ومن هذه الأحاديث ما رواه الترمذي عن ابن مسعود ولفظه: قال رسول الله ﷺ: «لقيت إبراهيم ليلة أسري بي فقال: يا محمد أقرىء أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأنها قيعان وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر». (الجامع الصحيح، كتاب الدعوات، باب (٥٩) حديث رقم (٣٤٦٢). وأخرجه غيره.

(٣) أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح، كتاب الدعوات، باب (٨٣) حديث رقم (٣٥١٠).

وأما حجبه: فقد ثبت في الصحيح أن «حجابه النور»[1] وفي رواية «حجابه النار» وليس بين الروايتين تناف.

ولك في تأويله سبيلان: أحدهما أن وجهه سبحانه هو الباقي ذو الجلال والإكرام، فله تجلٍ بجلاله في حجاب النار، كما تجلى لموسى عليه السلام حين آنس من جانب الطور ناراً.

وله تجلٍ بإكرامه في حجاب النور، كما تجلى لمحمد ﷺ ليلة الإسراء، في قوله ﷺ: «رأيت نوراً»[2].

وهذان الحجابان لأرباب الخصوص.

التأويل الثاني: وهو لأرباب العموم، يؤخذ مما قررناه أنه لا فاعل في الكون غيره، ولا هادي ولا مضل سواه، يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾ [الأنبياء: ٢٣] فوجه توحيده، هو الذي ينعم ويهدي بإقباله، ويعذب ويضل بإعراضه، وله في هدايته وإضلاله حجابان، فحجابه في هدايته النور، وهو آياته المتجلية للقلوب بواسطة شرائع رسله، قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦] وحجابه في إضلاله النار، وهي اكتساب الحجب المغشية للقلوب، الصادّة عن سبل الهدى والرشاد من وساوس الشيطان المخلوق من النار: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾ [المطففين: ١٤ و١٥].

فقد تبيّن بذلك أن وجه توحيد، هو الهادي بإقباله في حجاب نور الاتباع للمرسل ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣] وأنه هو المضل بإعراضه في حجاب الاتباع لوساوس الشيطان، وأنه لا تنافي بين قوله: «حجاب النور» وبين قوله: «حجابه النار»، وبذلك يفهم سر قوله ﷺ: «اللهمّ اجعل في قلبي نوراً، وفي

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ: «إن الله لا ينام»، حديث رقم [٢٩٣ ـ (١٧٩)] ونصه: عن أبي عبيدة عن أبي موسى قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: «إن الله عزّ وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النار وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور ـ وفي رواية أبي بكر النار ـ لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ: «نوراني أراه ونصه: عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته فقال: عن أي شيء كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله هل رأيت ربك؟ قال أبو ذر: قد سألت فقال: رأيت نوراً».

سمعي نوراً، وفي بصري نوراً» إلى قوله: «واجعلني نوراً»(١) أي اجعلني من جميع الوجوه نوراً، دالاً عليك، وحجاباً يتنعم برؤيتي من أراد التنعم بحسن النظر إليك.

تنبيه: جاء في الصحيح «إن الله سبعين حجاباً من نور»(٢).

وذلك لا تنافي بينه وبين قوله: «حجابه النور» لأنه جنس يصح لشمول الأفراد وإن تعددت.

والحق أن حجب أنواره لا حصر لها، لأن ما من شيء إلاَّ وهو حجاب من حجب وجه ربنا، وآية من آيات وحدانيته.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

وبمثل ذلك يفهم قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] الآية، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

وبذلك تعلم أن ذكر عدد السبعين في حجبه، ليس للحصر.

قال الأزهري وغيره من علماء اللغة: «العرب تضع السبع موضع التضعيف، وإن جاوز السبع».

وأصله قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ [البقرة: ٢٦١] الآية.

وأصل اعتبار هذا العدد في تضعيف حجبه: أن لله صفات ذاتية، وهي: العلم، والحياة، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام. فهذه سبع صفات ذاتية يتجلى سبحانه في حجب أنوارها بوجه توحيده، فكانت هي مبدأ التضعيف في حجب أنواره.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل، حديث رقم [١٨١ ـ (٧٦٣)] والحديث أخرجه غير مسلم.

(٢) أورده الإمام الغزالي في كتابه مشكاة الأنوار بلفظ: «إن لله سبعين ألف حجاب من نور وظلمة لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من أدركه بصره». وأخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، حديث رقم (٦٤٠٧) [ج٦ ص(٢٧٨)] ولفظه: عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «سألت جبريل عليه السلام هل ترى ربك؟ قال: إن بيني وبينه سبعين حجاباً من نور لو رأيت أدناها لاحترقت». وورد الحديث بألفاظ أخرى متقاربة.

ثم لأعداد التضعيف ثلاث رتب: رتبة العشرة، ورتبة المائة، ورتبة الألف. وآيات صفاته في تجلياتها تتضاعف بكل رتبة في دائرة من دوائر ملكه، فإن تضاعفت برتبة العشرة كانت سبعين، وإن تضاعفت برتبة المائة كانت سبعمائة، وإن تضاعفت برتبة الألف كانت نهاية الكثرة.

وقد نبّه ﷺ على الثلاثة بقوله: «من همّ بحسنة فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة»(١).

ووراء ذلك أسرار كثيرة: يمنحها الله لمن يشاء من عباده.

تبصرة: وأما سبحات وجهه سبحانه، فقد ثبت في الصحيح «لو كشف حجابه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»(٢).

وقد أوّلها العلماء بجلاله، وهو تأويل صحيح، لكن وجه ربنا ذو الجلال والإكرام، فله بجلاله سبحات، وله بإكرامه سبحات.

وإذا أردت أن تجري في التأويل على وفق الاستعمال اللغوي، والقواعد التي مهدناها: فاعلم أن السبحات جمع سبحة، والسبحة في اللغة ما يتطوع به من ذكر، وصلاة وتسبيح ونحوها، مما لا يحصى أفراده.

وقد ثبت أن أنوار الطاعات حجب وجهه سبحانه، ونور الذكر شامل لجميعها، ومهيمن على سائر سبحات الإكرام والجلال، وقد قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

فذكر الله لنفسه ولعبده: سبحة وجهه الشاملة لأنواع سبحاته، وذكر العبد له: نور حجابه.

فما دام العبد يشهد ذكره لربه، فوجه ربه متجل عليه في حجابه بسبحة ذكره، كما ثبت في الصحيح: «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إذا همّ العبد بحسنة...، حديث رقم [٢٠٧ ـ (١٣١)] والبخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب من همّ بحسنة أو بسيئة، حديث رقم (٦١٢٦). وأخرجه غيرهما.

(٢) هذا الحديث سبق تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء...، حديث رقم [٢ ـ ٢٦٧٥] وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ حديث رقم (٧٤٠٥) وأخرجه غيرهما.

ولا يزال العبد يذكر الله، وذكره له يبعده من شهود نفسه ونسبتها، ويقربه من شهود توحيد ربه، حتى ينكشف حجاب ذكر الله له، ويتجلى له سبحة ذكر الله له، هنالك تحرق سبحته بسبب نسب الأفعال والأذكار للعبد، وتظهر نسبتها للرب، كما ثبتت في الصحيح: «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها»[١].

تنبيه: قوله: «لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» اعلم أن بصره تعالى لا تتناهى مبصراته، ولا يحجبه عن خلقه حجاب، وإنما ينكشف لك معنى الحديث بمراجعة ما قررته لك، وبقوله ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» فنبّه ـ بالشرط ـ على أن العبد لا يشهد رؤية الله له حتى يغيب عن صفته ورؤيته ومراقبته لربه، فكل عبادة تصحبها المراقبة، فهي نور من حجب وجهه سبحانه، ينظر العبد منه إلى ربه، وينظر الله منه إلى عبده فإذا كشف للعبد فيها حجاب المراقبة: شهد رؤية الله سبحانه له، فانتهاء بصره عبارة عن انتهائه بحسب كشف العبد. وشهوده، لا بحسبه في نفسه، فإنه لا انتهاء له، وخلقه هو صفة العبد، ورؤيته وإحراقه، هو: محوه بثبوت صفة الرب ورؤيته للعبد، وصفة الرب ورؤيته هي: سبحة ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمٰن: ٢٦، ٢٧].

إشارة: أورد محمد بن علي الأصفهاني[٢] عن مجنون ليلى في محاومة هذا المعنى، ببيتين:

رأى ليلى: فأعرض عن سواها	محب: لا يرى حسناً سواها
لقد ظفرت يداه، ونال ملكاً	لئن كانت تراه كما يراها

فنبّه على أن الملك والظفر ليسا في رؤيته هو لها، وإنما هما في رؤيتها له.

وقوله: كما يراها، فيه تنبيه على تجلي السبحة، وذلك أنه رأى ليلى على وجه الإفراد، فلم يرَ معها غيرها، ولهذا قال: «فأعرض عن سواها» حتى عن نفسه، ولهذا قال: «أنا ليلى وليلى أنا» فنبّه على أن الملك هو أن تراه كذلك، فلا يراه غيرها،

---

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

(٢) هو أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد الأموي المشهور بأبي الفرج الأصفهاني، توفي سنة ٣٥٦هـ، وهو صاحب كتاب «الأغاني» المشهور.

وهذا فيما نحن فيه لا يتم إلاَّ بتجلي السبحة المقدسة، فإنها إذا تجلت أحرقت الحادث من صفة العبد، وتبقى صفة الرب هي المرئية له، كأنها هي المرئية لعبده، فهنالك تظفر يداه وينال ملك التصريف، بقوله: «كنت سمعه الذي يسمع به» الحديث.

إشارة: بهذا يفهم سر أمر الله لنبيه محمد ﷺ أن يقرأ على أُبي[1] رضي الله عنه، لم يكن مع قوله ﷺ: «أقرؤكم أُبي»[2] مع العلم بأن أُبيًا لم يكن أحفظ الصحابة للقرآن، ولا أفصحهم في القراءة، ولا أفقههم في أحكامه، ولكن لعله كان عند قراءة القرآن أصفاهم مراقبة لتلاوة النبي ﷺ كذلك الذي يقرؤه ويغيب بذلك عن قراءة نفسه، حتى كأنه يسمعه من النبي ﷺ، ومما يدل على ذلك ويوضحه لك، أن السورة التي أمر بقراءتها هي ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البينة: ١] وهي مشتملة على قوله: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝﴾ [البينة: ١ ـ ٣] فكان أُبي إذا قرأها صغي بأذن قلبه إلى روح النبوة يتلوا عليه ذلك، فأراد الله أن يحقق له في عالم الشهادة من تلاوة النبي ﷺ ما كان يشهده في عالم الغيب.

لطيفة: كلمة استعارة الإحراق لمحو صفات الخلق: التنبيه على أن حقيقة الخلق تراب، وباقي صفات الخلق إنما هي أثر تجليات الحق بصفاته، فلو ظهرت صفاته رجع الخلق إلى أصله تراباً، كما أن النار أي شيء أحرقته جعلته رماداً، وأزالت جميع صفاته.

«تربية»: قد قدّمنا أن قوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝﴾ [الرحمٰن: ٢٦، ٢٧] ينبه على أن لوجهه الكريم تجليين: تجلٍ بجلاله في حجاب

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين...، باب استحباب قراءة القرآن على أهل الفضل...، حديث رقم [٢٤٥ ـ (٧٩٩)] وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة: ﴿لَمْ يَكُنِ﴾ حديث رقم (٤٩٦٠) ولفظ الحديث هو: عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال لأُبي: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك» قال: آلله سماني لك؟ قال: «الله سمّاك لي» قال: فجعل أُبي يبكي. وأخرج الحديث غيرهما.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ ونصه: قال عمر رضي الله عنه: أقرؤنا أُبي وأقضانا علي وإنا لندع من قول أُبيّ، وذاك أن أُبيًا يقول: لا أدع شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ وقد قال الله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ وأخرجه النسائي في السنن الكبرى، باب قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ حديث رقم (١٠٩٩٥) [ج٦ ص٢٨٩].

النار، وتجلٍ بإكرامه في حجاب النور، فيحتاج أهل المراقبة إلى معرفة قبلة هذا التجلي وميقاته ومشرقه.

فاعلم يا عبد الله أن قبلة هذا التجلي القلب، وميقاته: الصلاة.

ومشرق الجلال: سبحان الله.

ومشرق الإكرام: الحمد لله.

فمن أراد شهود وجه ربه الباقي، فليجعل قبلته قلبه، وميقاته صلاته، ثم له حالان:

الحال الأول: أن يغلب على قلبه تنزيهه مما سوى الله، فهذا مشرقه سبحان الله، ووجه ربه يتجلى عليه بجلاله في حجاب النار، كما تجلى لموسى عليه السلام، ولهذا أمر الله أتباعه أن يقتدوا به في ذلك بقوله: ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [يونس: ٨٧] فهذه القبلة والميقات. ونبّه على تجليه عليه في مشرق «سبحان الله» في حجاب النار، بقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾ [النمل: ٨ و٩].

والحال الثاني: أن يغلب على قلبه شهود النعم والفضل لله، بلا شريك، فهذا مشرقه: الحمد لله، ووجه ربه يتجلى عليه بإكرامه في حجاب النور، كما تجلى لسيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فكانت قبلته قلبه ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات: ٨٤] وكان ميقاته صلاته ومشرقه: الحمد لله ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ [النحل: ١٢٠ و١٢١]، وكان التجلي بالإكرام في حجاب النور، وهي أنوار: الكوكب، والقمر، والشمس، فقال: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: ٧٦].

إشارة: إذا أردت أن تعلم أن ربه تجلى له بالإكرام، فتدبر قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الذاريات: ٢٤] فإذا كان ضيفه بسببه مكرما، فما ظنك به، وإذا أردت أن تعلم أن نظره كان لنور ربه، لا للنجوم والكواكب، فتدبر قوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾﴾ [الصافات: ٨٨] جعل النجوم ظرفاً للمرئي، لا نفس المرئي، وكيف لا، وقد رأى ملكوت السموات والأرض و﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] ومن جمع بين مشرق: سبحان الله والحمد لله، تجلى له ربه بكماله الجامع بين التجليين، وأراه آيته الكبرى، كما تجلى لمحمد ﷺ ليلة الإسراء، ونبه عليه قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ

﴿أَسْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١] إلى قوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء: ١١١] الآية، ولما تحقق بـ«سبحان» أولاً، وبـ«الحمد لله» آخراً تجلى له وجه ربه بكماله الجامع للجلال والإكرام في مشرق «لا إله إلاَّ الله» الجامع لسبحان الله والحمد لله، وهي آية ربه الكبرى، ولهذا قال آخر السورة: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١] وسيأتي لذلك مزيد بيان في مسألة الإسراء إن شاء تعالى.

فصل

السمع، والبصر، والعين، والأعين

من الآيات المتشابهة آيات السمع والبصر والعين والأعين، وقد دل الكتاب والسنة على أنهما قسمان: عادي وحقيقي، فالعادي: سمع القلب بالأذن وإبصاره بالعين، وهو عام في المؤمن والكافر، والحقيقي: بصر العين بالقلب، وسمع الأذن به، وقد نفاه الله عن الكافر في غيرما آية، منها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنفال: ٢١] وفي قوله: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨] فأثبت لهم السمع والبصر العاديين ونفى عنهم الحقيقي، وبهذا يفهم قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾ [طه: ١٢٤ و١٢٥] مع العلم بأن الله يعيدهم بأبصارهم العادية، كحالهم في الدنيا تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

ولكن الحكم في تلك الدار للأبصار الحقيقية، المستفادة من نور صفاته بواسطة استجابة القلب لآياته، وتوجهها بنورها إلى عالم الغيب، وقلب الكافر في الدنيا كان خالياً من نور التوحيد، فكان بصره لا يرجع إلى قلبه، لأنه لا مدد له إلاَّ من نور حسه، وهو أعمى عن نور آيات التوحيد، لا جرم أنه يحشر يوم القيامة أعمى كما كان في الدنيا ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣] فلذلك إذا قال: ﴿لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ﴾ [طه: ١٢٥، ١٢٦] أي لا بصر في هذه الدار إلاَّ من نور صفاتي المستفاد من الاستجابة لآياتي ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠] فإذا صح لك أن السمع الحقيقي، والبصر الحقيقي: عبارة عن سمع القلب وبصره، وأن الجوارح، وهي: العين والأذن، تحتاج إليه، وهو غني عنها، أمكنك حينئذ أن تفهم إثبات السمع والبصر لله سبحانه، وكذا بقية الإدراك، مع استغنائه في ذلك عن الجوارح، وتعاليه عنها.

وأما نسبة العين إليه: فهي اسم لآياته المبصرة، التي بها ينظر سبحانه للمؤمنين، وبها ينظرون إليه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾ [النمل: ١٣] فنسب البصر للآيات على سبيل المجاز تحقيقاً، لأنها المرادة بالعين المنسوبة إليه، وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٠٤] وعلى هذا يتنزل قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] أي بآياتنا تنظر بها إلينا، وننظر بها إليك، ويؤيد أن المراد هنا بالأعين الآيات: كونه علل بها الصبر لحكم ربه، وعلله بآيات القرآن صريحاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الإنسان: ٢٣ و٢٤].

قال تعالى في سفينة نوح: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤] أي بآياتنا وعنايتنا، بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود: ٤١] وقال تعالى في موسى عليه السلام: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: ٣٩] أي على حكم آيتي التي أوحيتها إلى أمك: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧] ويؤيد أن المراد ذلك كونه ظرف صنعه على عينه ﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ [طه: ٤٠] فمن تدبر ذلك علم صحة ما قلناه، وفتح له باب عظيم في تفسير كلام الله بعضه ببعض.

فصل النفس

ومن المتشابه: صفة النفس، في قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦] لأن النفس في اللغة تستعمل بمعان، كلها تتعذر في الظاهر ههنا، وقد أولها العلماء بتأويلات، منها: أن النفس عبّر بها عن الذات والهوية، وهذا - وإن كان شائعاً في اللغة - ولكن تعدى الفعل إليها بواسطة «في» المفيدة للظرفية محال، لأن الظرفية يلزمها التركيب، والتركيب في ذاته محال: يجل عنه تبارك وتعالى.

وقد أوّلها بعضهم بالغيب، أي ولا أعلم ما في غيبك [و]سرك، وهذا أحسن لقوله آخر الآية: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩] ولكن قانون اللغة يأباه، ولا بد من تخريجه على ما مهدناه حتى تنتظم أشتات الصفات، وذلك أن الصورة إذا كانت ظلة غمام آياته، فنفسه هي أم كتابه، وهي الآيات المحكمات، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧] والآيات

المحكمات هي الدالة على وحدانيته، بدليل قوله تعالى في أول هود: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ [هود: ١] الآية، ثم فسر أحكامها بالتوحيد في قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود: ٢] وفسر تفصيلها بالاستغفار والتوبة، في قوله: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣] ونبه على أن آياته المحكمة يرجع أعدادها إلى آية واحدة، محكمة، وهي: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [الصافات: ٣٥] فما من علم من العلوم في الغيب ولا في الشهادة، إلاّ وهو منتظم في سلك «لا إله إلاّ الله»، مستثمر من ثمار أسرارها، ولهذا اكتفى بعلمها للنبي ﷺ إجمالاً وتفصيلاً في قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩] الآية.

تنبيه: قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦] إذا خرجته على هذا تطلع على أسرار بديعة، وذلك أن السياق اشتمل على سؤال عيسى عليه السلام عما بلغه لبني إسرائيل، هل أمرهم بتوحيد ربهم أم بأن يعبدوا له ولأُمه.

ومن المعلوم أنه لم يكن أمرهم إلاّ بالتوحيد، فلما أراد أن يخبر بذلك تلطف في الإخبار به إجمالاً وتفصيلاً.

أما تفصيلاً فبقوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾ [المائدة: ١١٧] الآية.

وأما إجمالاً فبقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦] فقوله: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦] أي أم كتابك المشتمل على سر قدرك، وأن القلم جرى فيه بكفرهم.

وقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾ [المائدة: ١١٦] أي أم كتابي، وهو ما كتبه الله له من بينات التوحيد، وأيده به من روح القدس، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧].

«تبصرة»: شأن المحجوبين عن الله من أرباب الرئاسة، مواددة من عبدهم ومن عبد أقاربهم لأجلهم.

وأهل القلوب المؤمنة مبرؤون من ذلك، بمقتضى قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢] إلى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] ومن المعلوم أن عيسى عليه السلام كتب في قلبه الإيمان، وأيد بالروح، فلهذا قال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾ [المائدة: ١١٦] أي ما كتبته من الإيمان في قلبي، وأيدتني به من الروح، وأن ذلك ثمرة كوني لم أوادد هؤلاء الذين عبدوني وعبدوا أمي من دونك ﴿أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].

تنبيه: قوله: ﴿أَمَرْتَنِي بِهِۦ﴾ [المائدة: ١١٧] ولم يقل أمرت به، مع أن الأمر بالتوحيد، ولم يختص به، بل أمر به جميع الأنبياء، ولكنه نبه بذلك على سر القدر، وأن الأمر أمران: أمر حقيقة، وأمر شريعة.

فأمر الحقيقة: هو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠] وهو متوجه إلى جميع الكائنات، فما من كفر ولا إيمان إلاَّ وهو مأمور به ـ بهذا الاعتبار ـ لأنه لا يكون إلاَّ بأمره.

وأما أمر الشريعة: فهو الذي ربط به الثواب والعقاب، وقامت به الحجة ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣] فمن هذا يفهم السر في قول عيسى: ﴿أَمَرْتَنِي بِهِۦ﴾ [المائدة: ١١٧] خصصه بالإضافة إليه، تنبيهاً على أمر الشريعة، ولم يقل أمرت: تنبيهاً على أمر الحقيقة.

«إشارة»: بما كان في هذا اشتباه على المحجوبين ـ من المعتزلة وغيرهم ـ الذين يقولون: إن كفر العبد منسوب إلى اختراعه، غير مستند إلى إرادة ربه، وإلاَّ لما جاز له أن يعاقبه عليه، لا جرم بين الله جوابهم على لسان نبيه عيسى عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨] علل تعذيبه لهم بأنهم عباده، تنبيهاً على أن التعذيب لا يحتاج في جوازه عقلاً إلى معصية ولا كفر، ولهذا لم يقل فإنهم عصوك، وإنما مجرد كونهم عباداً يجوز للمالك أن يفعل بهم ما يشاء.

له حق وليس عليه حق ومهما قال فالحسن الجميل

«مناجاة»: إلهي جلّت عظمتك أن يعصيك عاص أو ينساك ناس، ولكن أوجبت أوامرك في أسرار الكائنات، فذكرك الناسي بنسيانه، وأطاعك العاصي بعصيانه، وإن من شيء إلاَّ يسبح بحمدك إن عصى داعي إيمانه، فقد أطاع داعي سلطانك ولكن قامت عليه حجتك ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩] ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

«اعتبار» قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨] أي ويحذركم أم كتابه، بدليل قوله أول الآية: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ [آل عمران: ٣٠]... الآية، مع قوله: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف: ٤٩] مع ما ثبت في صحيح مسلم وغيره من قوله ﷺ: «فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلاَّ ذراع واحد، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل

النار حتى ما يكون بينه وبينها إلاَّ ذراع واحد، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعلم أهل الجنة فيدخلها»[١] الحديث.

فهذا تحذير من أم الكتاب، الذي يكون خاتمة العبد على وفق ما سبق له فيه، وبهذا يفهم السر في ذكر النفس، وأم الكتاب متقاربين في أول السورة.

«إشارة» في الحديث: أن خشية سوء الخاتمة مخصوصة بأهل أعمال الجنة، وأما أهل الإخلاص لأعمال التوحيد فلا يخشى عليهم سوء الخاتمة، ولهذا قال: «ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلاَّ ذراع واحد» فافهم بذلك أن المتقرب متقربان: متقرب إلى الجنة بأعمالها، ومتقرب إلى الله بذكره، كما ثبت في الصحيح: «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني» إلى قوله: «وإذا تقرب إلي ذراعاً تقربت منه باعاً»[٢] وذلك يفهمك أن المتقرب إلى الله، لا يمكن أن يبقى بينه وبينه ذراع، لأن ذلك الذراع إن كان التقرب به مطلوباً من العبد، لم يبق بعده مقدار يتقرب الله به إليه، وحينئذ فيستلزم الخلف في وعده، وهو محال، وإن كان موعوداً به من الله: لزم تنجيز وعده، وتحقيق القرب للعبد، فلا يبقى بعد ولا دخول إلى النار.

فعلم أن ذلك الذراع مخصوص بأهل التقرب إلى الجنة، التي لا يلزم أن تقرب ممن تقرب إليها، فافهمه فإنه بديع.

«تتمة» قوله في الحديث: «فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي».

إذا أردت تخرجه على ما تقدم، فمعناه أن العبد إذا ذكر الله في سره فذكره له من آيات توحيده المتشابهة، فلا يزال يذكر ويشهد ذكر نفسه، حتى ينكشف حجابه كما قدّمناه في حجب الوجه وسبحاته، فهناك يحترق ذكر العبد المخلوق، ويتجلى ذكر الله لعبده بسبحاته، فيصير العبد مذكوراً والله ذاكراً، وذلك من آيات التوحيد المحكمة، وهي أم الكتاب، فلهذا عبر عنها بالنفس، ونسبت إليه سبحانه في قوله: «ذكرته في نفسي».

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه...، حديث رقم [١ - ٢٦٤٣]، وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، حديث رقم (٣٢٠٨). وأخرجه غيرهما.

(٢) هذا الحديث سبق تخريجه.

قوله: «وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه»، هذا من باب الترقي من حال الجمع والفناء إلى حال الفرق والبقاء وذلك لأن العبد إذا جمعه الله عليه بذكره له في نفسه وحده، أفناه، فإذا أراد أن يجعله هادياً بعثه لذكر الله في الملأ، فذلك إبقاؤه، فإذا ذكره: ذكره الله في ملأ خير منه.

فصل القرب

ومنها صفة القرب في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦] وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] ونحوه يفهمك أن قوله: «وإن تقرب إلي شبراً تقربت منه ذراعاً»[1] ليس على ظاهره، لأن قربه سبحانه من العبد بنوره لا يزال ولا تتفاوت درجاته، وإنما البعد صفة العبد، وبعده عن الله هو حجابه عن شهود قرب الله منه، وشهود قربه على حسب نور الإيمان والاستجابة، وبهذا يكون تقرب العبد إلى ربه.

وأما تقرب الرب إلى العبد فإرشاده بنوره لنوره، وقد جمع الله ذلك كله في قوله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

تنبيه: قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الواقعة: ٨٥] يدل على أن قربه من عبده سبحانه قرب حقيقي مع تعاليه عن المكان لأنه لو كان القرب يراد به قربه بعلمه أو قدرته وصفاته، لقال: «ولكن لا تعلمون» ونحوه، فقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥] يدل على القرب الحقيقي المدرك بالبصر، والبصر لا تعلق لإدراكه بالصفات المعنوية، وإنما يتعلق بالحقائق المرئية، وكذلك قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] يدل على ذلك، لأن (أفعل من) تدل على الاشتراك في القرب، ولا اشتراك بين قرب الصفات وقرب حبل الوريد، وعلى هذا فالقرب قرب حقيقي روحاني، بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الواقعة: ٨٨] أي من الذين يكشف لهم عن نعيم القرب الرباني ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الواقعة: ٨٩] فجعل قربهم: وجدانهم للروح والريحان، وقد قرىء بضم الراء وفتحها، وقد تقدم في حقيقة الرؤية ما يكشف عن معنى الإدراك للقرب بالبصر.

---

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

تبصرة: حكمة مجيء التفضيل لقربه على حبل الوريد: إنه تقدم ذكر الوسواس، ووسواس النفس: من إلقاء الشيطان، ومجراه الأوردة، بدليل قوله ﷺ: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»[1] ومجرى الدم هو عروق الأوردة ونحوها، فنبه بقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] على أنه أقرب إليه من مجرى الوسواس، وقلت في ذلك:

تشاغل عنا بوسواسه ... وكان قديماً لنا يطلب
محب تناسى عهود الهوى ... وأصبح في غيرنا يرغب
ونحن نراه ونملي له ... ويحسبنا أننا غيب
ونحن إلى العبد من نفسه ... ووسواس شيطانه: أقرب

فصل البطش

من صفاته «بطشه» سبحانه، قال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣﴾ [البروج: ١٢، ١٣] ولا تشابه فيه، لأن الآية الثانية تفسير للأولى، ولذلك جاء بها على وجه البدل، من غير عطف تنبيهاً على أن بطشه عبارة عن تصرفه في بدئه وإعادته.

وما من شيء من الكائنات [جواهرها وأعراضها] إلاّ وهي مفتقرة إلى بدئه وإعادته، فبطشه سبحانه: اسم شامل لجميع تصرفاته في مخلوقاته: بدءاً وإعادة.

فصل الأيدي واليدين

نسبة الأيدي إليه: استعارة لحقائق أنوار علوية، يظهر عنها تصرفه وبطشه: بدءاً وإعادة، وتلك الأنوار متفاوتة في روح القرب، وعلى حسب تفاوتها وسعة دوائرها يكون رتب التخصيص لما ظهر عنها، ألا ترى قوله تعالى في حق آدم: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] كيف يستفاد منه تنويه به وتشريف وتكريم وتخصيص، ولا يستفاد مثل ذلك من قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ [يس: ٧١] وما ذلك إلاّ لأن حقائق أنوار الأيدي الخالقة للأنعام ليست في روح القرب، كحقائق اليدين اللتين خلق بهما آدم.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب بيان أنه يستحب لمن رؤي خالياً بامرأة وكانت زوجته...، حديث رقم [٢٣ ـ (٢١٧٤)]، والبخاري في صحيحه، كتاب الاعتكاف، باب هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد، حديث رقم (٢٠٣٥) وأخرجه غيرهما.

فإن قلت: فما حقيقة اليدين في خلق آدم. قلت ـ والله أعلم بما أراد ـ ولكن الذي استثمرته ما تدبر كتابه ـ إن اليدين: استعارة لنور قدرته القائم بصفة فضله، ولنورها القائم بصفة عدله.

ويؤيد ذلك قوله ﷺ: «يمين ربي ملأى سحاء، لا يغيضها الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات، فإنه لم يغض ما في يمينه، وعرشه على الماء، وبيده الأخرى الميزان: يرفع ويخفض»[1]. فنبه على النور الفضل بيمينه السحاء المنفقة، وعلى نور العدل باليد الأخرى صاحبة الميزان.

ونبّه تعالى بقوله في آدم: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] على تخصيصه له، وتكريمه إياه بأن جمع له في خلقه بين: فضله وعدله، بمقتضى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩] فتسويته من عدله، ونفخ روحه من فضله، على أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

ومما يحقق لك أن اسم اليد استعارة لنوره سبحانه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢] فاستعار اليدين للقرآن، ثم نبّه على أنه استعارهما لما اشتمل عليه من نور الفضل ونور العدل، بقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] فالحكيم: صاحب نور العدل. والحميد: صاحب نور الفضل.

ونبّه بجمع الأيدي في خلق الأنعام على أن اليد المنسوبة إليه ليست جارحة، وإلاّ لم يزد على يدين لأن أفضل المخلوقات في الشاهد «محمد ﷺ» وهو لا يزيد على يدين.

وفي الحديث: «الحجر الأسود يمين الله في الأرض»[2] وذلك يفهم أن له يميناً سماوية نسبتها لأهل السماء كنسبة الحجر الأسود لأهل الأرض.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة...، حديث رقم [٣٧ ـ (٩٩٣)] وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب «وكان عرشه على الماء» حديث رقم (٧٤١٩) وأخرجه غيرهما ولفظه عندهما هو: إن الله قال لي أنفق أنفق عليك، وقال رسول الله ﷺ: «يمين الله ملأى لا يغيضها سحاء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق مذ خلق السماء والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه» قال: «وعرشه على الماء وبيده الأخرى القبض يرفع ويخفض».

(٢) أخرجه ابن الجوزي في العلل المتناهية حديث رقم (٩٤٤) [ج٢ ص٥٧٥].

تنبيه: في الصحيح للبخاري وغيره، في ذلك أحاديث منها حديث عبيدة عن عبد الله رضي الله عنه، قال: جاء حبر من اليهود إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله يجعل السموات على أصبع، والأرضين على أصبع، والشجر على أصبع، والماء على أصبع، وسائر الخلائق، ويقول: أنا الملك، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١] الآية[١].

قلت: هذا الحديث شديد الاشتباه عند أهل الظاهر، وهو محمول عند بعضهم: على أن اليهود مشبهة، ويزعمون فيما أنزل إليهم ألفاظاً تدخل في التشبيه، ليس القول بها من مذاهب المسلمين، وبهذا قال الخطابي[٢].

وقال: إنه روى هذا الحديث غير واحد عن عبد الله من طريق عبيدة، فلم يذكروا قوله «تصديقاً لقول الحبر»، ولعله من الراوي ظن وحسبان وسهو.

وضحكه ﷺ: يحتمل أنه لتعجبه من كذب اليهود، ويحتمل أنه لتعجبه من صدقهم.

وقد روى البخاري في أثر هذا الحديث، حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يقبض الله الأرض، ويطوي السموات بيمينه ثم يقول: أنا الملك: أين ملوك الأرض»[٣].

قال الخطابي: فهذا قول النبي ﷺ ولفظه، وهو على وفق قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١] الآية، وليس فيه ذكر الأصابع ولا تقسيم الخليقة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير باب ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ حديث رقم (٤٥٣٣) [ج٤ ص١٨١٢]. وأخرجه الترمذي في الجامع الصحيح، كتاب التفسير، باب (٤٠) حديث رقم (٣٢٣٨).

(٢) هو أبو سليمان أحمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي شارح صحيح البخاري وسنن أبي داود ومؤلف كتاب «غريب الحديث» توفي سنة ٣٨٨.

(٣) وأخرجه الدارمي في سننه، كتاب الرقاق، باب في شأن الساعة ونزول الرب تعالى حديث رقم (٢٧٩٩). وأخرجه ابن حبان في صحيحه بلفظ: عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال وهو على المنبر: «يأخذ الله سماواته وأرضيه بيده ثم يقول أنا الله ويقبض أصابعه ويبسطها أنا الرحمٰن أنا الملك» حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل منه حتى إني لأقول أسقاط هو برسول الله؟.

وقد رواه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: مر يهودي وقال: كيف تقول يا أبا القاسم إذا وضع الله السموات على ذه، والأرضين على ذه، والماء على ذه، والجبال على ذه، وسائر الخلق على ذه، وأشار محمد بن الصلت بخنصره أولاً، ثم بلغ إلى الإبهام، فأنزل الله قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١] بهذا يدلك على أن ذكر الأصابع وإبهام التشبيه إنما جاء من لفظ اليهودي، وزاد في هذه الرواية الإشارة إلى أصابع الجارحة، وأن الله تعالى أنزل تشبيه قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١] وظاهره أنه أنزلها للرد عليه، وأن الله تعالى منزّه عن ذلك.

وعلى الجملة، فقد جاء ذكر الأنامل في حديث آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني الليلة ربي في أحسن صورة ـ قال أحسبه في المنام ـ قال: يا محمد، هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟

قال: قلت لا، فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي، فتجلى لي كل شيء وعرفت»[1].

وفي رواية معاذ رضي الله عنه: «فرأيته وضع كفه بين كتفي، فوجدت برد أنامله بين ثديي».

وأنت إذا جمعت بين الأحاديث تحققت عدم إرادة الجارحة، لأنه يستحيل أن يكون كل أصبع من يد واحدة جسمانية تسع السموات والأرضين والجبال، ونحو ذلك، وهي: مع هذا العظم تجتمع أناملها بين كتفيه ﷺ حتى يجد بردها بين ثدييه.

وإنما المعول عليه في ذلك أن نخرجه على ما نبهنا عليه، وهو أن اليد: لحقيقة نور قدرته القائم بالعدل في إمساك مخلوقاته وتدبير ملكه، وهي من عالم الأمر الموصوف بصفة القيومية، ويدل على كونها من عالم الأمر قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥] وعلى أنها من نور قدرته الموصوفة بالقيومية: مناسبة الاشتقاق، وكونها قرن حصول العلم بوضعها بين كتفيه ﷺ، حتى علم علم ما في السموات والأرض، وعلم كل شيء، وهذا العلم هو علم التوحيد، الذي هو أصل العلوم كلها.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب (٣٩) حديث رقم (٣٢٣٣) وأخرجه أحمد في المسند، عن عبد الله بن عباس، حديث رقم (٣٤٨٤) [ج١ ص٣٦٨].

وقد جعل الله شهوده لأهله مقيداً بحال شهود قيوميته، قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨] فنصب قائماً على الحال، والعامل فيه شهد، والحال ظرف العامل، فلا يصدق كونهم أولى العلم بشهود التوحيد إلاَّ في حال شهود قيوميته.

فإذا أولنا بنور القيومية: علمت أن الحديث في معناه جاء موافقاً للقرآن، وهو يرجع إلى ما ذكرناه في تأويل اليد صاحبة الميزان التي تقدم ذكرها في الحديث، ويؤيد كونها صاحبة العدل: أن السياق الذي ذكر فيه ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١] إلى آخره سياق قيامه تعالى يوم القيامة بفصل القضاء والعدل.

فإن قيل: قد سماها باليمين في قوله: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧] واليمين هي صاحبة الفضل المنفقة كما تقدم.

قلت: لا تنافي في ذلك، لأن كلتا يديه يمين.

تنبيه: قوله تعالى: ﴿مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧] أشبه شيء ذكره المفسرون في معنى الطي: أنه بمعنى الإخفاء: أي والسموات قد خفيت حقائقها في يمينه، في نور تجليها، فليس لأهل الموقف سماء نورها، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩] لأهل الموقف إلاَّ حجاب نوره، ولا ظل إلاَّ ظل عرشه، والطي على هذا موافق لمعنى الكشط في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾﴾ [التكوير: ١١] كشفت وخفيت تحت أشعة أنوار يمينه.

وأما استعارة الأنامل والأصابع لها، فاعلم أن حقيقة ذلك ترجع إلى أنه ما من نور من أنواره تعالى، إلاَّ وله حجاب صوري، يتعرف إلى عباده بواسطته، بدليل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] الآية، فضرب المشكاة والزجاجة والشجرة أمثلة لحجب أنواره الصورية، وقد قدمنا عند ذكر الصورة ما يفهم به معنى قوله ﷺ: «فأتاني ربي في أحسن صورة» وأن الصورة التي تجلى لنبيه ﷺ فيها، وتجلى فيها بنور يده العليا، هي صاحبة الأنامل، وهي ظلة شريعته السمحة، التي هي أحسن الشرائع، وحقائق صفاتها كلها متنوعة من روح: «لا إله إلاَّ الله».

فيده العليا هي صاحبة الخير في قوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦] وفي قوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤] وأناملها الخمس هي: الخمس التي بني الإسلام عليها، ومنها أنملة الشهادة، وبهذا يفهم السر في وضعها بين كتفيه، وهو موضع خاتم النبوة، وفي أثمارها: العلم بكل شيء، لأن جميع

العلوم فروع لعلم «لا إله إلاّ الله» ويفهم السر في وجوده لبردها بين ثدييه، وهو صدره لانشراحه للإسلام، فهو ﴿عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢] على برد الرضى والتسليم للقضاء، ولا امتناع في تجسدها وتشكلها على هيئة الصورة، كما بيناه، وفي صورة هذه اليد الإسلامية، ظهرت قيوميته بالسموات والأرض، في قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ٨٣] وفيها ظهر سر العهد والمبايعة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] وفيها ظهر سر إجارته وعصمته بقوله: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ﴾ [المؤمنون: ٨٨] لأن من قال «لا إله إلاّ الله» عصم ماله ودمه.

فصل القدم

ومن المتشابه صفة «القدم» فإنه ثبت في الصحيح من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، عند مسلم وغيره، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال جهنم تقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه، فتقول: قط قط وعزتك»(١).

وهذا أيضاً يرجع إلى المحكم، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢] وقد مهدنا أن الصورة المنسوبة إلى الله، هي ظلة غمام الشريعة، وأن وجهه منها بارق نور التوحيد، ومظهره الإخلاص، وعلى هذا فالقدم منها، هو: نور الإيمان، ومظهره: الصدق، وهذا هو القدم الذي تستغيث النار من نوره، كما جاء في حديث أبي سمية، قال: سألت جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن الورود، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الورود: الدخول، لا يبقى بر ولا فاجر إلاّ دخلها، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً، كما كانت على إبراهيم، حتى أن للنار ضجيجاً من بردهم»(٢).

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون حديث رقم [٣٧ - (٢٨٤٨)]. وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان والنذور، باب الحلف بعزة الله وصفاته وكلماته، حديث رقم (١٦٦١) وأخرجه غيرهما.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب الأهوال، حديث رقم (٨٧٤٤)، وأخرجه أحمد في المسند عن جابر بن عبد الله، حديث رقم (١٤٥٦٠) [ج٣ ص٣٢٨]. وأخرجه غيرهما. وأخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، الأصل السادس عشر، في أن الورود في النار الدخول [ج١ ص١٢٧].

وفي حديث يعلى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن النار لتنادي: جز يا مؤمن، فقد أطفأ نورك لهبي»[١] أخرجهما أبو عبد الله محمد الترمذي الحكيم، وذكر القرطبي حديث يعلى عن أبي بكر النجاد.

تحقيق: مما يحقق أن القدم ما ذكرناه أمران:

أحدهما: أن نور الإيمان يكفر جميع أسباب الكفر، والمعاصي، وهي أسباب النار.

فكما يطفي أسبابها في الدنيا، فكذلك حقيقته تطفىء حقيقتها في الآخرة.

الثاني: نسبته إلى رب العزة، وهو صاحب العزة ومالكها، والعزة وإن كانت جميعها لله، بمقتضى قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ [فاطر: ١٠] لكنه قد نسبها لرسوله وللمؤمنين بقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] فما من مؤمن إلاّ وهو صاحب العزة، فإذا وضع قدمه حق للنار أن تضج منه، وتنزوي عنه، وتنطفي نارها بما له من نور العزة.

فائدة: في الشفا للقاضي عياض أن من أسمائه ﷺ «قدم صدق»، وهو يقتضي: أنه الأصل الجامع لكل نور من أنوار صفاته وأسمائه تعالى.

تنبيه: جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عند مسلم: «فأما النار فلا تمتلىء حتى يضع الله تبارك وتعالى فيها رجله، فتقول: قط قط، فهنالك تمتلىء وينزوي بعضها إلى بعض، فلا يظلم الله من خلقه أحداً»[٢] وذكر الحديث، وهو غير مناف لما ذكرناه، ومرجعه للحديث الصحيح الذي قدّمناه «ولا يزال عبدي يتقرب إلي

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير عن خالد بن الدريك عن يعلى بن منبه، حديث رقم (٦٦٨) [ج٢٢ ص٢٥٨]. وأخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد، باب ما جاء في الحساب [ج١ ص٣٦٠].

(٢) الصحيح، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء، حديث رقم [٣٤ ـ (٢٨٤٦)] ونصه عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «تحاجت الجنة والنار فقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين وقالت الجنة فما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم وغرتهم قال الله للجنة إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي وقال للنار إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ولكل واحدة منكما ملؤها فأما النار فلا تمتلىء حتى يضع الله تبارك وتعالى رجله تقول قط قط قط فهنالك تمتلىء ويزوي بعضها إلى بعض ولا يظلم الله من خلقه أحداً وأما الجنة فإن الله ينشىء لها خلقاً».

بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه» إلى قوله: «ورجله التي يمشي بها»[١] فإنه يقتضي تحقق رجل المؤمن بنور التوحيد، حتى تكون منسوبة إلى الله، وحينئذ فهو موافق لما تقدم في القدم.

وقوله: «فهنالك تمتلىء» أي بأهلها من المتكبرين، وقوله: «وينزوي بعضها إلى بعض» فيه حكمتان:

أحدهما: أنها عندما تضج بسبب نور العزة من أقدام المؤمنين، فيخرجون منها: تخلو مواضعهم، فلو بقيت كذلك لما كانت مملوءة، وهو مناف لقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: ١٨] الآية، وأيضاً فربما كان في ذلك تخفيفاً على أهلها، فاقتضت الحكمة أنها حينئذ تنضم وتجتمع على أهلها، وتمتلىء بهم تحقيقاً للوعيد وزيادة في العذاب.

الحكمة الثانية: أنها لو بقيت مواضع المؤمنين خالية من النار: لم يتم لهم سرورهم بالأمن منها، لعلمهم أن الله وعدها أنه يملؤها، فربما توقعوا الإعادة، فكان في انزوائها، وانضمامها على أهلها، وامتلائها بهم تأمين للمؤمنين، كما ذبح الموت[٢] بين الفريقين: تحقيقاً للخلود.

قوله: «فلا يظلم الله من خلقه أحداً» أي لا يملؤها بغير أهلها، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ [ق: ٢٩، ٣٠].

تبصرة: بهذا القدم يفهم السر في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١] وفي قول الربانيين: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ [آل عمران: ١٤٧] فنبّه أن تثبيت الأقدام بالماء المطهر، المتنزل على القلب بروح التوحيد، بدليل قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) ذبح الموت ورد في صحيح البخاري، كتاب التفسير ونص الحديث هو: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادي مناد يا أهل الجنة فيشرئبون وينظرون فيقول هل تعرفون هذا فيقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رآه ثم ينادي يا أهل النار فيشرئبون وينظرون فيقول هل تعرفون هذا فيقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رآه فيذبح ثم يقول يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت» ثم قرأ ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ - وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا - ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ والحديث مخرّج عند غير البخاري.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] وذلك الماء المطهر هو القرآن، بدليل قوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [النحل: ١٠٢] فانظر كيف أضيف الروح للقدس، وهو الطهارة، وجعلها المثبتة بالقرآن لأقدام الذين آمنوا، وبشرى لهم: أي بقدم الصدق، بدليل تصريحه به في يونس كما قدمناه.

تنبيه: بهذا القدم الصدق الذي تستغيث النار من نوره، يفهم السر في تخصيص إبراهيم عليه السلام ببرد النار وسلامها، لإيمانه في قوله تعالى: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨١، ٨٢]، وكذلك يفهم السر في أنس موسى بالنار، وقوله تعالى: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ [طه: ١٢] الآية، لأنه كان له قدم الصدق الإيماني بمقتضى قوله: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

إشارة: قوله تعالى: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ [طه: ١٢] له ظاهر وباطن.

فأما الظاهر، فالحكمة في الأمر بخلع النعل الظاهر: أن سير الأنبياء في الأرض كان سير اعتبار وادكار ونظر لما أودع فيها من سر البدء والإعادة بمقتضى قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٠] وكان المراد التعرف لموسى بسر الإعادة وقيام الساعة، ولهذا كانت مناجاته في جانب الغربي، لأن من أكبر آيات الساعة طلوع الشمس من مغربها.

وقيل له في أول مناجاته: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه: ١٤] ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ [طه: ١٥] ومن المعلوم أن بعث الخلائق وحشرهم يكون من الأرض المقدسة، وقد فسر قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [ق: ٤١] أي من صخرة بيت المقدس، فمن هنا قيل لموسى عندما سار بأهله وبلغ بيت المقدس وكشف له من سر ما أودع فيه من قيام الساعة: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ [طه: ١٢] تنبيهاً على أنه انتهى سفرك، وبلغ ما كان المراد بك من التقرب، ولهذا قيل له: ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾ [طه: ١٢] أي هذا هو الوادي الذي أودع فيه سر قيام الساعة، ورجوع الخلائق إلى الله، فاخلع نعليك، وألق عصاك، فإن النعل وأخذ العصا من توابع السفر، وخلع النعل وإلقاء العصا من أعلام الإقامة، قال الشاعر:

فألقت عصاها واستقر بها النوى ... كما قرّ عيناً بالأياب المسافر

وأما الباطن: فإن حقيقة النعل: ما يكون وقاية لقدم الصدق من عوائق طريق القلب إلى الله، وما فيه من وعر وشوك، كما نبّه عليه ﷺ: «تعس عبد الدينار، وتعس عبد الدرهم، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش» فنبّه بهذا على أن افتتان القلب بزينة الدنيا يعوق قدم الصدق عن السير إلى الله، فإن عظم في عينه منها تعس به، وإن احتقره واستهان به، كان بمثابة الشوكة تدخل في قدم السائر، فإن انتقش أي أخرجه بمنقاش الاستغفار، وألقاه بالزهد فيه: سلم وسارع بقدم صدقه إلى الله، وإن أهمله كان بمثابة الشوكة التي يهملها صاحبها حتى تتمكن، ويفسد بها الدم، ويحصل المرض والوقوف عن السير، وربما تمكنت فكانت سبباً للموت، أو زمانة القدم، والنعلان يقيان من ذلك، وهما الرجاء فيه، والخوف منه.

فموسى لما خرج خائفاً يترقب، وقال عند التوجه: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢] اعلم أنه انتعل الخوف والرجاء، وركبهما في سيره، لأن من انتعل فقد ركب، لحديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه في صحيح مسلم[١].

قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فقال: «أكثروا من النعال، فإن الرجل لا يزال راكباً ما انتعل»[١].

فلما بلغ حضرة المناجاة والتأنيس، وحلّ في وادي التقديس، قيل له: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ [طه: ١٢] لأن الرجاء والخوف لأرباب السلوك، لا لمن وصل وخص بمجالسة الملوك.

ومما يحقق لك أن الرجاء والخوف هما نعلا قدم الصدق، حديثان:

أحدهما: رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه ﷺ قال لبلال رضي الله عنه: «أخبرني بأرجى عمل عملته في الإسلام، فإني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة». وذكر الحديث[٢].

فافهم بقوله: «أخبرني بأرجى عمل» أن الرجاء هو نعل قدم الصدق، ولهذا

---

(١) كتاب اللباس، باب استحباب النعال...، حديث رقم (٢٠٩٦) ونصه: عن جابر، قال: سمعت النبي ﷺ يقول في غزوة غزوناها: «استكثروا من النعال، فإن الرجل لا يزال راكباً ما انتعل».

(٢) ونصه: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لبلال عند صلاة الفجر: «يا بلال حدّثني بأرجى عمل عملته في الإسلام فإني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة» قال: ما عملت عملاً أرجى عندي أني لم أتطهر طهوراً في ساعة ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي. صحيح البخاري [ج١ ص٣٨٦] حديث رقم (١٠٩٨).

قال: «فإني سمعت دف نعليك» فأتى بالباء والفاء، وهما يفيدان سببية الوصف للحكم، أي أن سبب سماعه دف نعليه، هو رجاؤه الله بعمله.

الحديث الثاني: ما رواه مسلم عن العباس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أهون أهل النار عذاباً، أبو طالب، وأن في قدميه لنعلين يغلي منهما دماغه»(١).

وإنما خص بالنعلين، لأنه كان له قدم في تصديق محمد ﷺ ومحبته ونصرته والذب عنه، ولكن كان لا يدين بدينه خوفاً من سبة العرب.

ولهذا قال لقريش عند الموت في وصيته: «أوصيكم بمحمد خيراً، فإنه الأمين في قريش، والصديق في العرب، وقد جاء بأمر قبله الجنان، وأنكره اللسان، مخافة الشنآن».

ثم قال في آخر كلامه: «والله إن من سلك سبيله رشد، ومن أخذ بهديه سعد».

فانظر كيف كان له قدم صدق في محبته وقبول أمره، ولكنه انتعل فيه الخوف من الخلق والرجاء لهم، فظهرت حقيقته له بعد الموت، بنعلين من النار.

وأما الحكمة في كونهما «يغلي منهما دماغه» فلأن في الصحيح «ألا أخبركم برأس الأمر وعموده وذروة سنامه: الجهاد في سبيل الله»(٢).

ومن المعلوم: أن أبا طالب كان أشد الناس جهاداً عن رسول الله ﷺ، ولكنه لم يتدين بدينه، خشية من السبة، فكان خوفه لغير الله سبباً لإحباط جهاده وإفساده، وهكذا تكون حقيقة خوفه لغير الله ـ وهي نعله في النار ـ سبباً لإذابة دماغه، وهو لهب رأسه، وإحباطه بالإذابة والإفساد.

فصل الكلام

ومنها صفة الكلام، والمتشابه منها نسبة الصوت والحروف إلى كلام الله سبحانه وتعالى.

---

(١) ونص حديث مسلم هو: عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ ذكر عنده عمه أبو طالب فقال: «لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من نار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه». (صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب...) حديث رقم [٣٦٠ـ (٢١٠)].

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، تفسير سورة السجدة...، حديث رقم (٣٥٤٨) [ج٢ ص٤٤٧] وأخرجه أحمد في المسند عن معاذ بن جبل، حديث رقم (٢٢٠٦٩) [ج٥ ص٢٣١]. وأخرجه غيرهما.

وقد وردت آيات وأحاديث، توهم ذلك، فمنها قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] والمسموع إنما هو الحرف والصوت.

ومنها سماع موسى عليه السلام كلام الله.

وما روي من أن الله ينادي بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك الديّان[١].

ومنها قوله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله، فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ألم حرف، بل ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»[٢] وغير ذلك من الأحاديث الثابتة، وهي مسألة مهمة، بعيدة الغور، تزلزلت فيها أقدام المتكلمين.

ومذهب أهل الحق: أن لله كلاماً قديماً قائماً بذاته، واحداً في حقيقته، مخالفاً لصفة علمه وإرادته، منزهاً عن الحروف المرتبة والأصوات المحدثة، منزلاً على نبيه، مقروءاً بالألسنة، مكتوباً في المصاحف، مسموعاً لموسى عليه السلام حقيقة، ولمن يريد الله إسماعه، غير مخلوق في الشجرة[٣] ولا قائم بالحوادث.

وموضع البراهين العقلية والسمعية على كل مقام من ذلك: الكتب الكلامية.

والمقصود ههنا رد ما وقع من المتشابه في الكتاب والسنة، من إيهام نسبة الصوت والحرف إلى الله سبحانه وتعالى، ولا بد ـ في ردها للمحكم ـ من مراجعة مقدمة هذا الكتاب وهو: أن كلام الله سبحانه وتعالى صفته، وصفة القديم قديمة، تتقدس عن الحدوث، والحروف في إفادة الكلام: يلزمها الترتيب، وتقدم بعضها على بعض، وذلك مستحيل على القديم.

ولكنا قدمنا أن لصفاته مظهرين، وبه يعلم: أن لكلامه مظهر، جسماني منسوب للعباد، وهي الألسنة والأيدي والأقدام. ومظهر علوي روحاني، وهو: روح القدس.

وقلمه العلي، والحروف والأصوات: من لوازم المظهرين.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ...﴾ ص(١٣٥٢) طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ما له من الأجر، حديث رقم (٢٩١٠) [ج٤ ص٢٢] طبعة دار الكتب العلمية بيروت. وأخرجه غيره.

(٣) التي سمع موسى كلام الله تعالى عندها.

وكلامه منزّه عنهما، كتنزه القلب في كلامه عن الحروف اللسانية، والأصوات الهوائية، وإن كانت مظاهر له، وبهذا يتضح لك جميع المتشابه.

وأنا أفصله لك:

فمنه قوله عزّ وجلّ: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] أي بواسطة مظاهر الجسمانيات، وهي أصوات العباد وحروفهم، وإطلاق كونه سامعاً لكلام الله بذلك: مجاز، لما قدّمناه: أن المظاهر الجسمانية ليست منسوبة إلى الله تعالى: لا لغة ولا شرعاً.

ومنه: عن عائشة رضي الله عنها في صحيح البخاري ومسلم وغيرهما: «أن الحارث بن هشام، سأل رسول الله ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟

قال: أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت ما قال.

وأحياناً يأتيني، يتمثل لي الملك رجلاً، فيكلمني فأوعى ما يقول»[١]

وهذا كله يحقق أن لكلام الله في الروحانات مظهرين:

مظهر جلي: يتشكل بالمظاهر الجسمانية وأصواتها وحروفها.

ومظهر آخر له حروف وصوت خفي روحاني، لأن الجرس في أصله هو: الصوت الخفي، والصلصلة: صوت اليابس الصلب إذا حرك.

ويصح نسبة المسموع حينئذ إلى الله بالتأويل الذي ذكرته لك.

ومنها سؤالان:

أحدهما: ما السر في مناسبة الصوت المسموع بالصلصلة؟

الثاني: ما وجه اشتداده عليه؟

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب عرق النبي ﷺ في البرد وحين يأتيه الوحي، حديث رقم [٨٧ ـ (٢٣٣٣)]. ونصه: عن عائشة أن الحارث بن هشام سأل النبي ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحياناً يأتيني في مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي ثم يفصم عني وقد وعيته وأحياناً ملك في مثل صورة الرجل فأعي ما يقول». وصحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة...، حديث رقم (٣٠٤٣) [ج٣ ص١١٧٦] طبعة دار ابن كثير اليمامة ـ بيروت. وأخرجه غيرهما.

والجواب عن الأول: أن المتنزل بالوحي، هو الروح، وهذا الصوت ليس صوت الروح.

وإنما الروح إذا تجلت للرؤية: أفادت لمن تجلت عليه الرؤية في مظهر يناسب قابليته واستعداده - كما قدمناه - في اختلاف الرائين على حسب صور أخلاقهم وأعمالهم.

وكذلك إذا تجلت للأسماع: أفادت السمع بواسطة مظهر يناسب قابلية السمع.

ومن المعلوم: أن الإنسان قبل نفخ الروح فيه، كان أصله من صلصال، وهي صورة طين يابس، إذا نقر وداخلته الريح صل وصوت. فافهم بذلك: أن الصوت والحرف المسموع عند تنزل روح الوحي، إنما هو حادث متناسب لصفة الإنسان، ظهر لتنزل روح الوحي عليه وانفصامه عنه، ليس معناه انقطاعه، فإن كلام الله قديم لا يقبل الانقطاع، وإنما انفصامه: غيبة القلب عن تجليه لحجاب الحس، فهنالك يجد نفسه قد وعى، أي جمع له الوحي بكتابه روحانية في لوح قلبه، تحقيقاً لقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧﴾ [القيامة: ١٧].

وأما الجواب عن الثاني: فإنما كان ذلك أشد الوحي، لأن روح الإنسان لها تعلق بالحس، وارتباط به ارتباطاً جسمانياً، فإذا جاء الوحي بواسطة الملك، وهو على مثل الإنسان، فقد تطور الملك، وبرز بالوحي إلى الدائرة الإنسانية، فسهل على الروح تلقيه، لمناسبته العالم الحسي.

وإذا جاء الوحي روحاً مجرداً: اقتضى تجرد القابل له من علاقة الحس، فاشتد ثقله كما يشتد عليه التجرد من الجسد عند الموت، ومن هذا يفهم السر في قوله ﷺ لعائشة رضي الله عنها عقب الوحي: «حدثيني» يريد الرجوع إلى عالم الحس، ليخف على أمته تلقي ما يلقيه إليهم عند التبليغ.

ومنه في البخاري [والترمذي واللفظ له] عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «إذا قضى الله في السماء أمراً ضربت الملائكة أجنحتها خضعاناً لقوله، كأنها سلسلة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم، قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا الحق وهو العلي الكبير»[1] وهذا يقتضي: أن هذا الصوت المسموع: صوت أجنحة الملائكة.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الحجر...، حديث رقم (٤٤٢٤) [ج٤ ص١٧٣٦]. والجامع الصحيح، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة سبأ، حديث رقم (٣٢٢٣).

ولكن في بعض الروايات ما يقتضي نسبته إلى الوحي، وهو يتخرج على ما قررناه، لأنه كما أن الوحي سمعه محمد ﷺ كصلصلة الجرس، باعتبار قابليته، فكذلك تسمعه الملائكة كجر السلسلة على الصفوان، باعتبار قابليتهم، لا باعتبار نفسه، وفيه تحقيق: أن أجنحة الملائكة ليست كأجنحة الطير، وإنما هي صفات روحانية، كما قاله السهيلي[1] وهي قوى تسترسل بها فيما يأذن الله تعالى لها من التصريف، ولهذا جاء ذكر الأجنحة في سياق جعلها رسلاً، قال تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [فاطر: ١] وضربها بها: أعدادها لقبول ما يلقى عليها من روح الأمر، واسترسالها في تنفيذه، وكأنه من: ضرب في الأرض إذا سار.

والغرض من ذلك كله: التمثيل والتقريب للأفهام.

تنبيه: من تشبيه ما يسمع الملائكة عند الوحي بالسلسلة، تفهم المناسبة في رؤيا عبد المطلب قبل مولد نبينا محمد ﷺ: «إنه خرج من ظهره سلسلة لها طرف بالمشرق، وطرف بالمغرب، وطرف في السماء وطرف في الأرض، ثم صارت شجرة لها ورق من نور، تعلق بها أهل المشرق والمغرب، فأولها المعبرون بولد».

فانظر مناسبة هذه الرؤيا للوحي.

أما مناسبة السلسلة، فقد علمته.

وأما مناسبة مصيرها شجرة، فخذه من كلامه سبحانه لموسى عليه السلام، وسماعه إياه من الشجرة، وحقيقة تلك الشجرة، هي الروح المحمدية القائمة بسر «لا إله إلاّ الله» المرادة بقوله: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ [النور: ٣٥] الآية، وهي الشجرة في قوله تعالى: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤] الآية، وفي قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المؤمنون: ٢٠] فالدهن هو حقيقة: الزيت الذي يكاد يضيء ولو لم تمسسه النار التي آنسها موسى عليه السلام، والصبغ هو حقيقة: الصبغة، في قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨].

(١) هو عبد الرحمٰن بن الخطيب بن عبد الله بن أحمد بن أصبغ بن فتوح الخثعمي أبو زيد السهيلي ولد سنة ٥٠٨هـ وتوفي بمراكش سنة ٥٨١هـ له مؤلفات عدة منها: الإيضاح والتبيين لما أبهم من تفسير الكتاب المبين، رسالة في رؤية الله تعالى في المنام ورؤية رسوله عليه الصلاة والسلام، والروض الأنف في شرح غريب السير.

تنبيه: إفادة الشجرة لاستماع كلام الله، كإفادة ألسنة القراء، وكلاهما في ذلك بمثابة القلم في إفادة المكتوب، وإلى هذا السر أشار بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧] وإنما ينكشف لك ذلك بمعرفة سبب نزول هذه الآية، فإن سبب نزولها: أن اليهود قالوا: إنا أوتينا التوراة، فيها موعظة وتفصيل لكل شيء، فلا حاجة لنا إلى ما جاء به محمد ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ [لقمان: ٢٧] الآية، أي لو أن كل ما في الأرض من الأشجار: أقلام تفيد من كلام الله تعالى ما أفادته شجرة موسى لموسى عليه السلام، ما نفدت كلمات الله، ولا حصل الاستغناء عنها، فانظر كيف أشار لشجرة الكلمات الموسوية، وجعلها بمثابة القلم في إفادة كلمات الربوبية، فكما أن المكتوب: لا يحل بالقلم، ولا يكون صفة له، ولا ينتقل به عمن هو صفته، كذلك الكلام المسموع، لا يحل بالألسنة، ولا بالمصاحف، ولا بالأقلام، ولا يكون صفة للقارىء، ولا ينتقل بالقراءة والكتابة عن موصوفه تبارك وتعالى.

فإن قيل: فما معنى كونه منزلاً؟

قلت: قد أجاب المتكلمون بأن الإنزال: الكتاب والعبارة الدالين عليه، وفيه نظر، لأن المعتزلة وصفوه بأنه مخلوق، ففر أهل السنة من ذلك إلى وصفه بأنه منزل، فإذا كان الإنزال يرجع إلى الكتاب والعبارة الدالين عليه، فالكتابة والعبارة مخلوقة أيضاً، فلا فرق بين وصفها بالخلق أو الإنزال، إلاَّ إن رددت ذلك إلى أمر تعبدي، أو توقيف سماعي.

والتحقيق: أن وصفه بالإنزال كوصفه تعالى بالنزول، وأنه نزول بروح أمره، وكذلك إنزال القرآن: إنزال للروح المحمدية، قال تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا رَّسُولًا﴾ [الطلاق: ١٠، ١١] فأبدل الرسول من الذكر، والمقصود بالعامل البدل، وذلك نص في أن إنزال الذكر هو إنزال الرسول بالذكر.

وقال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [النحل: ٢].

فجعل الإنزال للملائكة بالروح، وفسر الروح بكلامه، وهو قوله تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓا أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [النحل: ٢].

ولهذا جاء بأن المفسرة.

وسيأتي مزيد بيان في صفة الإنزال إن شاء الله تعالى.

فصل الجنب

ومن المتشابه: «الجنب» في قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] وهو أيضاً يتخرج على ما مهدناه، وذلك أن الصورة: إذا كانت ظلة غمام الشريعة، فرأسها كتاب الله، وجنبها سنة رسول الله ﷺ، ومظهرها متابعته، ومتابعة خلفائه الراشدين، وعلماء الأمة المتقين ومما يدل على ذلك، قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥] مع قوله في أثناء السورة: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣] فعلم أنه كتاب الله، وكذا سنة رسوله ﷺ لأنه لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٤] فلما مهد الأمر بالمتابعة لكتابه وسنة رسوله، حذر من إتيان عذابه قبل ذلك، ومن قول النفس: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] وذلك كالصريح في أن الجنب هو: سنة رسوله وعلماء الأمة المتقين، لأنهم كانوا يسخرون من الذين آمنوا في اتباعهم لرسوله ﷺ، فلهذا أردفت حسرتها، بقولها: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦] وبقولها: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: ٥٧] فرد الله عليها بقوله: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٩﴾ [الزمر: ٥٩].

تنبيه: قد سبق في أثناء السورة قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨] ثم بيّن أنهم الذين اتقوا بقوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [آل عمران: ١٩٨] ثم بيّن بقوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠].

إن ذلك هو الذي وعدهم به، في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [البقرة: ٢١٢] لأنهم يكونون في الدرك الأسفل، والذين اتقوا في الغرف، ولذلك حق لهم أن يتحسروا على ما فرطوا في جنب الله، وهو صحبة رسوله ﷺ، ومتابعته، حتى يسعدوا به، وبصحبته كما سعد به المتقون من أتباعه، واهتدوا باتباعه، وفي ذلك اليوم تظهر لهم حقيقة سخريتهم في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ [محمد: ١٦] إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ۝١٧﴾ [محمد: ١٧].

تبصرة: إذا تقرر لك بهذا أن الجنب جنبان: جنب حسي، وجنب معنوي حقيقي، فكذلك الصاحب بالجنب، صاحبان: صاحب في السفر الحسي الجنبي، وصاحب في السفر الغيبي القلبي.

وبذلك فافهم السر في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء: ٣٦] إلى قوله: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النساء: ٣٦] فإن تنزلت، فاعتبر قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ [النساء: ٦٩] الآية.

وإن ترقيت فاعتبر قوله تعالى عن رسوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ [النجم: ٢] ثم اعتبر قول الرسول ﷺ في سفره: «اللهمَّ أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل»[1].

بيان: قد روى أبو عبد الله الحكيم الترمذي بسنده إلى عبد الله بن سلام رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ يجلسه الله معه على العرش»[2] وذلك يتخرج على ما مهدناه، لأننا بينا أن الصورة التي يتجلى الله فيها هي ظلة غمامة، وهي أنوار آياته، وفي تلك الصورة يتجلى على العرش، ونبينا ﷺ يتجلى لأمته في ظلة سنته، وكتاب الله وسنة رسوله: لا يفترقان، كما لا تفارق «لا إله إلا الله لمحمد رسول الله» فمن ههنا صحت المجالسة له مع ربه على عرشه، ووضح بهذا حسرة النفس التي شقيت بمخالفته على تفريطها في جنب الله، لأنها تشهد هنالك حقيقة معية ربه له، ومجالسته.

اعتبار: ذكر أبو عبد الله الترمذي في «نوادر الأصول» له: حديث رؤيا رسول الله ﷺ لأهوال القيامة وفيه: «ورأيت رجلاً من أمتي، والنبيون حلق حلق، كلما دنا إلى حضرة طرد، فجاءه غسله من الجنابة فأخذ بيده، فأقعده إلى جنبي»[3].

وهو أيضاً: يخرج على ما مهدناه، لأن اتباع السنة، تارة يكون فيما يقتضي

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب ما يقول إذا ركب إلى سفر...، حديث رقم [٤٢٥ ـ (١٣٤٢)]. ونصه: عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر كبّر ثلاثاً ثم قال: «﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٤﴾ اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى اللهم هوّن علينا سفرنا هذا واطوِ عنا بعده اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب في المال والأهل» وإذا رجع قالهن وزاد فيهن «آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون». والحديث أخرجه غير الإمام مسلم.

(٢) أخرجه الحافظ الشيباني في كتاب السنة حديث رقم (٧٨٦) [ج٢ ص٣٦٥] بلفظ: عن عبد الله بن سلام قال: إذا كان يوم القيامة جيء بنبيكم ﷺ فأُقعد بين يدي الله تبارك وتعالى على كرسيه فقال لأبي مسعود الجريري إذا كان على كرسيه فهو معه قال في نسخة فقيل ولكم هذا أقر حديث في الدنيا لعيني.

(٣) أخرجه الطبراني في الأحاديث الطوال، حديث رقم (٣٩) [ج١ ص٢٨١].

التنزيه، وتارة يكون فيما يقتضي الحمد، وبهما يكمل الميزان، كما ثبت في الصحيح «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان»[١].

وصاحب غسل الجنابة: إذا شهد نور المتابعة المحمدية في الغسل، حصل له شطر الإيمان، فلذلك فاز بصحبته للجنب المحمدي ومجالسته.

فصل صفة الفوقية

وأما صفة الفوقية، فقد جاء بها الكتاب والسنة، كقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨] وآيات كثيرة، وأحاديث، وهو معدود من المتشابه، وذلك أن «فوق» كلمة موضوعة لإفادة جهة العلو، والله تعالى منزّه عن الجهات، وإنما المراد منها حيث أطلقت في حق ربنا سبحانه: إفادة العلو الربّي.

ومما يدل على عدم اختصاصه بجهة «فوق» قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣] وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤] وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] وقوله: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] وآيات كثيرة يطول ذكرها، ولو كان في جهة العلو: لتعارضت هذه الآيات، واختلفت، وهو مناف لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وفي مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنه ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»[٢] فنفي تقييده بجهة فوق، وهو: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣، ٤].

والذي يجمع بين الآيات والأحاديث: أن يعلم أن العلو له اعتباران: اعتبار إضافي، واعتبار حقيقي، فعلو المخلوقات بعضها على بعض، إنما هو علو إضافي،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، حديث رقم [١ ـ ٢٢٣] وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى، باب فرض الطهور ومحله من الإيمان، حديث رقم (١٨٥) [ج١ ص٤٢]. وأخرجه غيرهما.

(٢) الصحيح، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، حديث رقم [٢١٥ ـ (٤٨٢)] ورواه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب الدعاء في الركوع والسجود، حديث رقم (٨٧٥). وأخرجه ابن حبان في صحيحه، ذكر الرغبة في الدعاء والسجود لقرب العبد من مولاه في ذلك الوقت، حديث رقم (١٩٢٨) [ج٥ ص٢٥٤]. وأخرجه غيرهم.

لأن ما من مخلوق له جهة علو، إلاَّ وهو مستقل بالنسبة إلى مخلوق آخر هو فوقه، إلى ما يشاء الله.

وهذا العلو الإضافي قسمان:

قسم حسي: وهو المفهوم بالنسبة إلى الجهات المكانية، المخصوص بالجواهر المفتقرة للحيز.

وقسم معنوي: وهو المفهوم بالنسبة إلى درجات الكمال العرفاني، لأرباب القلوب، أو الكمال الوهمي لأرباب النفوس. قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢] وقال تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: ٢١] هذا كله في العلو الإضافي.

وأما العلو الحقيقي، فإنما هو لله سبحانه ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وعلوه هذا محقق قبل الجهات والأماكن، مفهوم بدون اعتبار النسب والإضافات، عام في جميع تجلياته على مخلوقاته بأسمائه وصفاته.

وإنما يعرفه ويشهده أرباب البصائر والقلوب، ولتجلي نور توحيده بعلو فوقيته سُبحة، وله حجاب، فسبحته صفة القهر، وحجابه خلوص العبودية، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨].

تنبيه: إذا أردت أن تتحقق أن فوقيته ليست فوقية مكانية، وإنما هي الفوقية الحقيقية، بقهر الربوبية للعبودية، فتفكر في حديث «كان الله ولا شيء معه»[(١)] ولم يتجدد له بخلقه للسموات علو، ولا بخلقه الأرض نزول، ولا بخلقه للعرش استواء.

وإنما عن تجلي أسمائه وصفاته نشأت أعداد مخلوقاته، غير مماسة له ولا منتسبة إليه بفوق ولا تحت، ولا شيء من الجهات، قال تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾﴾ [الأعلى: ١، ٢] فوصفه بالأعلى حال اتصافه بالخلق، فدل على أن علوه محقق قبل الخلق، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١] الآية، وصف نفسه آخر الآية بالعلو والتنزيه، في قوله تعالى بعد ذكره قبضه للأرض وطيه للسماء، فدل على أن علوه علو حقيقي[(٢)]: لا مكاني.

---

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٢٠٠٩) طبعة دار الكتب العلمية - بيروت، وانظر تخريجه في الدر المنثور للسيوطي [ج٤ ص٤٠٣] طبعة دار الفكر - بيروت.

(٢) أي من حيث ما يليق بجلاله تعالى من حيث الرتبة لا الجهة والمكان كعلو المخلوقات. وسيفسر الشيخ الأكبر بعد أسطر العلو الحقيقي: بالفوقية الحقيقية التي فسرها بالقهر مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢].

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨] مع قول فرعون على بني إسرائيل ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] فهل يفهم أحد أن فرعون ادّعى أنه فوق بني إسرائيل: نسبة بالمكان أو بالجهة.

وإنما لما ادّعى الربوبية بقوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] كان من لازم دعواه ادعاؤه الفوقية اللائقة بالربوبية، وهي الفوقية الحقيقية، بالقهر، فلذلك قال: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

لا جرم كذبه الله في الأمرين:

فكذبه في قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] بقوله لموسى: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٨].

وكذبه في قهره بقوله: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ [طه: ٧٨، ٧٩].

تنبيه: قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ [غافر: ١٥] يرجع إلى العلو والفوقية الحقيقية، وليس المراد: أن العلو الحقيقي له درجات وتفاوت.

وإنما المراد: أن للعباد في ترقيهم إلى معرفته وخلوص التحقيق به: درجات:

الأولى: درجة الإيمان.

والثانية: درجة التقوى.

والثالثة: الاتباع.

والرابعة: درجة العلم.

قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [البقرة: ٢١٢].

وقال تعالى: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ [آل عمران: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

تنبيه: قوله تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [النور: ٣٦] وقد فسرت بالمساجد، وفسرت بالقلوب، وكيفما كان، فرفعها: تحققها واشتمالها على ما ذكره من الدرجات المذكورة، وتمام الآية يحققه.

تنبيه: لما ادّعى فرعون الربوبية، واعتقد الجهة لله تعالى قال: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧] فرد

الله عليه وسخف سوء رأيه بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [غافر: ٣٧] أي عدل عن سبيل القرب والدنو من إله موسى، فإنه تنزه عن علو المكان، وإنما يصعد إليه بالكلم الطيب، والعمل الصالح يرفعه.

أين هو من قول موسى ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤] مع أنه لم يبن له صرح، ولا احتاج في الدنو والقرب إلى صعود السماء.

وكذلك إبراهيم حين جاء ربه بقلب سليم، ووهب له لسان صدق علي، فكان مجيئه إليه، ووصوله إليه، وعلوه: بسلامة القلب وصدق اللسان، لا بالتّسور والصعود للمكان، وقد ثبت إيواء الله للمؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٦].

وفي صحيح البخاري(١) عن أبي واقد الليثي أن ثلاثة حضروا حلقة ذكر، فدخل أحدهم الحلقة، والثاني جلس خلفهم، والثالث أدبر ذاهباً، فقال عليه الصلاة والسلام: «أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله، والآخر استحيا فاستحيا الله منه، والآخر أعرض، فأعرض الله عنه».

فنبّه ﷺ، على أن الداخل أوى إلى الله، فآواه الله، مع العلم بأنه ليس الإيواء في الآية والحديث باعتبار مكان.

وفي صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ رأى نخامة في المسجد [في القبلة] فقال: «ما بال أحدكم يقوم مستقبل ربه فيتنخع أمامه، أيحب أحدكم أن يستقبل فيتنخع في وجهه»(٢).

---

(١) كتاب العلم، باب من قعد حيث ينتهي به المجلس...، حديث رقم (٦٦) وأخرجه مسلم كتاب السلام، باب من أتى مجلساً...، حديث [٢٦ ـ (٢١٧٦)]. وأخرجه غيرهما ونصه: عن أبي واقد الليثي أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه إذ أقبل نفر ثلاثة فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد قال: فوقفا على رسول الله ﷺ فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها وأما الآخر فجلس خلفهم وأما الثالث فأدبر ذاهباً فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم عن النفر الثلاثة أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه».

(٢) كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن البصاق في المسجد...، حديث رقم [٥٣ ـ (٥٥٠)] ونصه: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ رأى نخامة في قبلة المسجد فأقبل على الناس فقال: «ما بال أحدكم يقوم مستقبل ربه فيتنخع أمامه أيحب أحدكم أن يستقبل فيتنخع في وجهه فإذا تنخع أحدكم فليتنخع عن يساره تحت قدمه فإن لم يجد فليقل هكذا».

فدل على أنه ليس مخصوصاً بجهة فوق، وإلاَّ لما كانت قبلة المصلي، وأمامه.

وبالجملة، فالأحاديث الدالة على عموم إحاطة ربنا لجميع الجهات، وعدم اختصاصه: كثيرة.

والقصد: قد حصل بما ذكرناه.

فصل الإسراء

قصة الإسراء: وإن كانت مشتملة على الترقي بالنبي ﷺ إلىٰ السموات، فليست منافية لما ذكرناه، ولا مستلزمة لإثبات الجهة، ويدل عليه أمور، منها افتتاح السورة بـ«سبحان» المقضي للتنزيه تنبيهاً على تعاليه عن التحيز بالجهات، وعلى عدم اختصاصه بجهة.

الثاني: قوله تعالى: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١] فأتى بباء الإلصاق، المفيدة للمصاحبة، في تعدية الفعل: تنبيهاً على مصاحبته له في إسرائه، وأنه ليس نائياً ولا بعيداً عنه، فيحتاج في قربه إلى قطع مسافة مكانية، وتحقيقاً لقوله ﷺ: «اللهمَّ أنت الصاحب في السفر».

الثالث: قوله تعالى: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١] تنبيهاً على أنه على حسب التحقق بخضوع العبودية، يكون الترقي إلى حضرة الربوبية.

الرابع: قوله تعالى: ﴿لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١] وإن كان لفظ الإسراء مفيداً لذلك، تنبيهاً على أن كل ما تضمنه الإسراء، كان خارجاً عن العادة في مثله، فإنه جعل العلة فيه: أن يرى من آياته، والإراءة العادية سلاطنها النهار، فقال: ﴿لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١] ليعلم أن الرؤية المقصورة ليست عادية، بل هي رؤية: بنور رباني، سلطانه الليل، دون النهار.

الخامس: قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١] نبّه به على أن الإسراء لو كان لضرورة رؤية ربه لكونه مخصوصاً بجهة العلو: لم تكن حاجة بالذهاب إلى المسجد الأقصى، ولأمكن الترقي من مكة إلى السماء.

فدل على أن الإسراء والترقي، من مكان لمكان: لحكمة وراء زعم مثبت الجهة، والسر فيه، وفي كونه ذكر الله تعالى في كتابه: تنبيهاً على أن العبد لا يصل إلى الله إلاَّ فرداً، تحقيقاً، لقوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٩٥] ولا تتحقق له الفردية إلاَّ بعد مفارقة الحوادث وتجرده عنها.

فهنالك يصل إلى حضرة عنديته.

وقد جاء الكتاب العزيز بالتنبيه على أن حضرة عنديته، وراء دوائر السموات والأرض، قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٩] فعطف (من عنده) على (من في السموات والأرض) والعطف يقتضي المغايرة. فدل على أن حضرة العندية وراء السموات والأرض، وهي مع ذلك محيطة بحضرات السموات والأرض، كإحاطة ربنا بذلك كله، مباينة له كمباينته، فمن أرادها فعليه بتفرقة الحوادث ومباينته لها.

ثم اعلم أن الفرقة فرقتان: فرقة قلبية غيبية، وفرقة حسية: فإن فارقها بقلبه وصل إلى الله بقلبه، وإن فارقها بحسه تبعاً لقلبه، وصل إلى الله بحسه وقلبه، فلذلك كان الإسراء، مرتين: مرة بالروح، ومرة بالجسد، تنبيهاً على أنه ﷺ شرع لأُمته فراق الحوادث مرتين: مرة بالروح، وهو الإسراء الأول، ومرة بالجسد حساً، وهو الإسراء الثاني، ومن المعلوم أنه لا يتحقق لفرقة الحوادث حساً إلاّ بمجاوزة دوائر الأفلاك كلها، كما ثبت ليلة الإسراء. وأما ترتيب نعليه، وترقيه في توجهه: ففيه أسرار بديعة: أظهرها وأجلاها: أن فرض الصلاة كان ليلة الإسراء، والصلاة حضرة القرب والمناجاة والمراقبة المثمرة لنعيم الرؤية.

ومن المعلوم أن التوجه توجهان: روحاني، وحسي. فقبلة التوجه الروحاني: وجه الله، ولا اختصاص له بمكان، وأما التوجه الحسي فله قبلتان: بيت المقدس والكعبة، فبيت المقدس: هو قبلة الأنبياء، والكعبة هي قبلة إبراهيم عليه السلام، فجاء الإسراء الروحاني أولاً تأسيساً للشريعة في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾ [البقرة: ١١٥] وجاء الإسراء الحسي مبدوءاً بالتوجه لبيت المقدس، ثم إلى السماء، ثم بالرجوع إلى الكعبة تأسيساً للشريعة في التوجه الحسي في الصلاة أولاً لبيت المقدس، ثم للسماء في قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ﴾ [البقرة: ١٤٤] ثم بالرجوع إلى قبلة مكة في قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ﴾ [البقرة: ١٤٤].

إشارة: لما كان توجه الإسراء إلى مكة بعد خروجه من حضرة القرب في التلقي إلى حضرة القرب في التبليغ، جاء التشريع في التوجه إلى الكعبة على وفق المناسبة، فقال فيه: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ﴾ [البقرة: ١٤٩] ومن

هذا يفهم السر في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩] إلى قوله: ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: ٨٠] وهذا المخرج للدعوة والتبليغ، هو المخرج الذي ورثه عنه أمته في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] الآية.

تنبيه: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾ [النجم: ٨، ٩] إيّاك أن تفهم أن ذلك يشعر بتحديد في القرب، أو تخصيص في جهة، وإنما هو دنو تجلٍ وكشف، لأنه ذكره في قصة الإسراء بالروح، ألا ترى قوله تعالى بعده: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾﴾ [النجم: ١١] ثم ذكر بعده الإسراء الحسي فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [النجم: ١٣] إلى قوله: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [النجم: ١٨] فإذا علم أنه دنو تجلٍ روحاني، وكشف عرفاني، فهمت سر قوله: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾﴾ [النجم: ٧] من قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ [فصلت: ٥٣] فكان أفقه في الرؤية، وفي بيان الحق فكان ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ [النجم: ٩] أي قدر قوسين، والقوس في اللغة يستعمل للذراع، وما يقدر ويقاس به، وهو المراد هنا، وهو من قوله تعالى في الصحيح: «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني»[1] الحديث، وفيه: «فإن تقرب إلي شبراً تقربت منه ذراعاً، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت منه باعاً»[1]. وليس المراد فيهما ذراع حسي محدود، إنما المراد تمثيل التقريب لدنو الذاكر من المذكور في مجالس النجوى والذكر، وتجلي سر المعية للقلب، وأوفى الرتب في ذلك تحقق القلب بسر ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ [المؤمنون: ٩١] وسر ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة: ٢] وكذلك كان ﷺ ليلة الإسراء. وإذا أردت التحقق لذلك فخذه من افتتاح سورة الإسراء بـ: ﴿سُبْحَٰنَ﴾ [الإسراء: ١] واختتامها بقوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الإسراء: ١١١] ثم نبّه على انتفاء التقدير من دنوه بقوله: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩] وهو التحقق بالتوحيد في نعيم الرؤية للآية الكبرى، وهي: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [الصافات: ٣٥] ولذلك وصف بقوله آخر سورة الإسراء: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء: ١١١] إلى قوله: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء: ١١١] تحقيقاً لقوله: «وما بينهم وبين النظر إلى ربهم إلاّ رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»[2] كما قدّمناه.

---

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

(٢) هذا الحديث سبق تخريجه.

إيضاح: إذا أردت أن تفهم سر التدلي في قوله: ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم: ٨] فتأمل ما رواه أبو عيسى الترمذي من حديث العنان، وفيه ذكر الأرضين السبع، وأن ما بين كل أرض وأرض كما بين السماء والأرض، ثم قال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده لو دلّى أحدكم بحبل لوقع على الله»[١] فنبّه ﷺ على عدم تحيزه تعالى في السماء، وأنه ليس مختصاً بجهة، كما نبّه على ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾ [النجم: ٨] فإن الإسراء كان للعلو، فربما توهم المحجوب أن الدنو في قوله تعالى: ﴿دَنَا﴾ [النجم: ٨] زيادة العلو، فنبه بقوله: ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم: ٨] على أن قربه ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ [النجم: ٩] كان ثمرة التدلي المشعر بالتنزل، وأنه تعالى لا يختص قربه بجهة العلو، بل التدلي إليه بالخضوع أقرب تحقيقاً، لقوله: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩] وفي الصحيح «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»[٢].

تبصرة: قوله ﷺ: «لو دلى أحدكم بحبل لوقع على الله» له تأويلان: ظاهر وباطن، فالظاهر التنبيه على إحاطته سبحانه بكل شيء، وعلى إحاطة حضرته كما قدمناه في الإسراء.

وأما الباطن فالحبل حبلان: حادث، وقديم.

---

(١) أخرجه الترمذي بلفظ: عن أبي هريرة قال: بينما نبي الله ﷺ جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب فقال نبي الله ﷺ: «هل تدرون ما هذا؟» فقالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «هذا العَنَان هذه رَوَايا الأرض يسوقه الله تبارك وتعالى إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه» قال: «هل تدرون ما فوقكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنها الرّقيع سقف محفوظ وموج مكفوف» ثم قال: «هل تدرون كم بينكم وبينها؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «بينكم وبينها مسيرة خمس مائة سنة» ثم قال: «هل تدرون ما فوق ذلك؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن فوق ذلك سماءين ما بينهما مسيرة خمسمائة سنة» حتى عدّ سبع سماوات ما بين كل سماءين كما بين السماء والأرض، ثم قال: «هل تدرون ما فوق ذلك؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن فوق ذلك العرش وبينه وبين السماء بُعْدُ مثل ما بين السماءين» ثم قال: «هل تدرون ما الذي تحتكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنها الأرض» ثم قال: «هل تدرون ما الذي تحت ذلك؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن تحتها الأرض الأخرى بينهما مسيرة خمسمائة سنة» حتى عدّ سبع أرضين بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة، ثم قال: «والذي نفس محمد بيده لو أنكم دليتم رجلاً بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله» ثم قرأ ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ (الجامع الصحيح، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الحديد، حديث رقم ٣٢٩٨).

(٢) هذا الحديث سبق تخريجه.

فالحادث: حبل الوريد، وهو الحديث النفساني والنور العقلي، فلو دلى المتفكر حبل شعاع عقله إلى منتهى المخلوقات السفلية، لوقع في كل حضرة من حضرات مدركاته على الله، لأنه أقرب إليه من كل شيء ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦].

وأما الباطن القديم: فهو حبل الله المتين، وكتابه المبين، فمن تمسك به: شهد سر تنزله على أراضي القلوب، ووقوع حبل أشعته على الله فيها، لأن القلب بيت الرب ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ [الواقعة: ٧٥] إلى قوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥].

تبصرة: إذا أردت زيادة التبصر بأن الإسراء، وعروج الملائكة، ورفع عيسى، وإدريس عليه السلام، لا يدل على أن الله تعالى مخصوص بجهة السماء، فاعتبر فرض الحج على العباد إلى البيت الحرام، وأمر الله تعالى الناس بالتوجه إليه من جميع الجهات، وجعل سكانه جيران الله وحجاجه، وفده وضيفانه، والحجر الأسود يمينه، مع أن نسبة البيت وغيره إلى الله سبحانه باعتبار المسافة واحدة، فعلم أن القصد بالسير إلى البيت: ليس مقصوداً، لأن السير يقتضي القرب والوصول إليه بالمكان، وإنما لله سبحانه تعبدات وأسرار في ضمن مشروعات يقتضيها من عباده، لحكم ظاهرة وخفية، ألا تراه كيف ناجى موسى بالوادي المقدس، وأسمعه كلامه من الشجرة ووصفه بالقرب إلى مجلس حضرته ونجواه، مع الاتفاق أنه تعالى لا يختص بجهة الوادي المقدس، ولا يحل كلامه ـ وهو صفته ـ بالشجرة، وأن موسى قرب إليه مع كونه بالأرض، وسمع نداء ربه من جانب الطور، ولم يكن ربه بجانب الطور، وإنما لتجلياته مظاهر وحجب روحانية وجسمانية، لا يشهدها إلاَّ من فتق الله رتق قلبه، وفلق أصباح ليله، ونور مصباح مشكاته، بزيت شجرة توحيده ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

تشكيك: قد يورد على ذلك نحو قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ [الملك: ١٦] وقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة: ٥] وأمثال ذلك:

وقوله ﷺ للجارية: «أين الله؟

فقالت: في السماء.

قال: أعتقها فإنها مؤمنة»[1].

والجواب: أنه قد قررنا أن تجلياته تعالى بأسمائه وصفاته محيطة بدوائر السموات والأرض، وأن لها في تصرفها وسائط سفلية منسوبة للعباد، ووسائط علوية منسوبة له، فأطلق على نفسه سبحانه أنه في السماء باعتبار الوسائط، ومظاهر تجلياته العلوية، وأنه في الأرض باعتبار المظاهر، والوسائط السفلية ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤] وقال تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النحل: ٥١] فإذا كان المقصود بالسياق تحذير أهل الأرض، وتفخيم الأمر: جاء التعبير بمن في السماء، فإن مظاهره السماوية هي القائمة بالتصرفات الغيبية المنسوبة إليه، كما قررناه.

وأما تنزل التدبير وعروجه، فهو عروج روحاني، وسر رحماني، وكشف عرفاني، وسيأتي له مزيد بيان بعد ذكر مسألة الاستواء.

وأما تقرير الجارية على أن الله في السماء ووصفها بأنها مؤمنة، فالحق أن النبي ﷺ لم يعتمد في إيمانها وتقريرها ظاهر لفظها، فإن لفظها ليس مفيداً لتوحيد الله، لا على المذهب القائل بالجهة ولا غيرهم.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب تشميت العاطس في الصلاة، حديث رقم (٩٣٠) ونصه: عن معاوية بن الحكم السلمي قال: صليت مع رسول الله ﷺ فعطس رجل من القوم فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم فقلت: واثكل أماه ما شأنكم تنظرون إلي؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم فعرفت أنهم يصمتوني فقال عثمان: فلما رأيتهم يسكتوني لكني سكت قال: فلما صلّى رسول الله ﷺ بأبي وأمي ما ضربني ولا كهرني ولا سبّني ثم قال: «إن هذه الصلاة لا يحل فيها شيء من كلام الناس هذا إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن أو كما قال رسول الله ﷺ» قلت: يا رسول الله إنا قوم حديث عهد بجاهلية وقد جاءنا الله بالإسلام ومنا رجال يأتون الكهان، قال: «فلا تأتهم» قال: قلت: ومنا رجال يتطيرون، قال: «ذاك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدهم» قلت: ومنا رجال يخطون، قال: «كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك» قال: قلت: جارية لي كانت ترعى غنيمات قبل أحد والجوانية إذ اطلعت عليها اطلاعة فإذا الذئب قد ذهب بشاة منها وأنا من بني آدم آسف كما يأسفون لكني صككتها صكة، فعظم ذاك على رسول الله ﷺ فقلت: أفلا أعتقها؟ قال: «ائتني بها» قال: فجئته بها فقال: «أين الله؟» قالت: في السماء، قال: «مَن أنا؟» قالت: أنت رسول الله، قال: «أعتقها فإنها مؤمنة».

أما عند من لا يثبت الجهة فواضح، وأما عند مثبت الجهة، فلأنهم موافقون على أنه قد عبدت الملائكة والشمس والكواكب، وهي في السماء، وعبد عيسى وهو حين الأخبار في السماء، وليس في لفظها ما يخرج هؤلاء عن الآلهة، ولا ما يقتضي وصفها بالإيمان.

وأقرب احتمال في ذلك أن الجارية أشرق لبصيرتها نور التوحيد في الآفاق السماوية، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ [فصلت: ٥٣] الآية. فلما قال لها: أين الله؟ قالت: في السماء.

أي ظهر نور توحيده في السماء، فقال: «أعتقها فإنها مؤمنة».

ويحقق ذلك كونه لم يقل: إنها مسلمة، لأن الإسلام تتعلق أحكامه باللسان والجوارح الظاهرة، ولم يكن ظهر منها شيء من ذلك يعتمد عليه، وقال: «إنها مؤمنة» والإيمان من لوازم القلوب، فدل على أن اعتماد النبي ﷺ في تقريرها، كان أمراً [ما] شهده منها يرجع إلى قلبها، لا إلى لفظها، مع احتمال لفظها له، فلذلك أقرها عليه، والله أعلم.

فصل الاستواء

ومن الآيات المتشابهة، آيات الاستواء، والأحاديث الواردة فيه، ومرجعها عند المحققين إلى الآيات المحكمات، وأول ما ينبغي تقديمه معنى الاستواء لغة، وأصله: افتعال، من السواء، والسواء في اللغة: العدل، والوسط، وله وجوه في الاستعمال ترجع إلى ذلك، منها استوى: بمعنى أقبل، نقله الهروي عن الفراء قال:

العرب يقولون: استوى إلي يخاصمني، أي أقبل علي.

الثاني: بمعنى: قصد، قاله الهروي.

الثالث: بمعنى استولى.

الرابع: بمعنى اعتدل.

الخامس: بمعنى استقام.

السادس: بمعنى علا، قال الشاعر:

ولما علونا واستوينا عليهم ... تركناهم صرعى لنسر وكاسر

قاله الحسن بن سهل[١]:

إذا علم أصل الوضع وتصريف الاستعمال فنزل على ذلك الاستواء المنسوب إلى ربنا سبحانه وتعالى، وقد فسره الهروي بالقصد، وفسره ابن عرفة بالإقبال، كما نقله عن الفراء: وفسره بعضهم بالاستيلاء، وأنكره ابن الأعرابي[٢] قال: العرب لا تقول استولى إلا لمن له مضاد، وفيما قاله نظر، لأن الاستيلاء من الولي، وهو القرب، أو من الولاية، وكلاهما لا يفتقر إطلاقه لمضاد.

ونقل الحسن بن سهل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه فسر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩] قال: علا أمره، وهذه التفاسير كلها محتملة، وهي على وفق اللغة والمعاني اللائقة بربنا سبحانه.

وأما استوى بمعنى استقر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ [هود: ٤٤] وقوله تعالى: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف: ١٣] الآية، فلا يليق نسبة مثله إلى استواء ربنا تعالى على العرش.

مع أنا نقول: قد علمت أصل اشتقاق الاستواء، ولا مدخل فيه لمعنى الاستقرار، وإنما الحق: أن معنى استوى على الدابة جاء على الأصل، ويكون معناه: اعتدل، أو علا عليها، والاستقرار من لازم ذلك بحسب خصوصية المحل، لا أن للاستقرار مدخلاً في معنى اللفظ مطلقاً، وحينئذ فلا يصح نسبة مثله إليه تعالى، لاستحالته في حقه وعدم وضع اللفظ له.

وقد ثبت عن الإمام مالك رحمه الله أنه سئل: كيف استوى؟ فقال: «كيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة».

فقوله: «كيف، غير معقول» أي كيف من صفات الحوادث، وكل ما كان من صفات الحوادث فإثباته في صفات الله تعالى ينافي ما يقتضيه العقل، فيجزم بنفيه عن الله سبحانه.

قوله: «والاستواء غير مجهول» أي: أنه معلوم المعنى عند أهل اللغة، والإيمان به على الوجه اللائق به تعالى واجب، لأنه من الإيمان بالله وبكتبه، «والسؤال عنه

---

(١) هو الحسن بن عبد الله بن سهل بن يحيى بن مهران أبو هلال اللغوي العسكري ترك مؤلفات عدة منها كتاب في التفسير. توفي سنة ٣٩٥ هجرية.

(٢) هو محمد بن زياد اللغوي المشهور توفي سنة ٢٣١ هجرية.

بدعة» أي حادث، لأن الصحابة رضي الله عنهم كانوا عالمين بمعناه اللائق بحسب اللغة، فلم يحتاجوا للسؤال عنه، فلما جاء من لم يحط بأوضاع لغتهم، ولا له نور كنورهم يهديه لصفات ربه، شرع يسأل عن ذلك، فكان سؤاله سبباً في اشتباهه على الناس، وزيغهم عن المراد، وتعين على العلماء حينئذ ألا يهملوا البيان.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧] ولا بد في إيضاح البيان من زيادة، فنقول: قد قررنا أن الاستواء مشتق من السواء، وأصله: العدل، وحينئذ فالاستواء المنسوب إلى ربنا تعالى في كتابه بمعنى: اعتدل، أي قام بالعدل، وأصله من قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨] فقيامه بالقسط والعدل هو استواؤه، ويرجع معناه إلى أنه أعطى بعزته كل شيء خلقه موزوناً بحكمته البالغة، للتعرف لخلقه بوحدانيته، ولذلك قرنه بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦] والاستواء المذكور في كتابه: استواءان استواء سماوي، واستواء عرشي: فالأول معدى بإلى، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩] وقال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١] ومعناه ـ والله أعلم ـ: اعتدل، أي قام بقسطه وتسويته إلى السماء، فسواهن سبع سموات، ونبّه على أن استواءه هذا هو قيامه بميزان الحكمة، وتسويته بقوله أولاً عن الأرض: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت: ١٠] وبقوله آخراً: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦] وأما الاستواء العرشي، فهو أنه تعالى قام بالقسط متعرفاً بوحدانيته في عالمين: عالم الخلق، وعالم الأمر، وهو عالم التدبير ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] فكان استواؤه على العرش للتدبير بعد انتهاء عالم الخلق، لقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ [يونس: ٣] وبهذا يفهم سر تعدية الاستواء العرشي بـ«على»، لأن التدبير للأمر لا بد فيه من استعلاء واستيلاء.

اعتبار: اعتبر ـ بعد فهم هذا ـ قوله تعالى في خطابه لنبينا ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾﴾ [الانفطار: ٦، ٧] واعتبر ما أثمرته هذه التسوية والتعديل، بقوله تعالى عند ليلة الإسراء: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾﴾ [النجم: ٦، ٧] مع قوله ﷺ: «بلغت إلى مستوى أسمع فيه صريف الأقلام».

ومن المعلوم أن القلم إنما يجري بالقدر، كما ثبت في حديث عُبادة بن الصامت رضي الله عنه: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب. فقال: وما أكتب؟ فقال: اكتب القدر! ما كان وما هو كائن إلى الأبد»[١].

وبهذا الاعتبار يعلم أن الاستواء، عبارة عما قررناه لك من أن استواءه قيامه بالقسط، وتقدير المقادير في عالم خلقه وعالم أمره.

فصل النزول

ومن الأحاديث المتشابهة أحاديث نزوله سبحانه كل ليلة إلى سماء الدنيا، وهو لا ينافي ما ذكرناه، ولا يستلزم إثبات الجهة، ولا اتصافه تعالى بالحركة والنقلة، فإنها عرض، والأعراض يلزمها الحدوث، والحدوث على القديم محال على ما هو مقرر في الكتب الكلامية ولسنا له الآن، وإنما القصد تخريج صفة النزول على ما يوافق القواعد التي مهدناها في صفاته تعالى. وقد أوّل بعضهم النزول بنزول علمه أو قدرته ونحوه وهو غير منج، فإن علمه وقدرته وصفاته إن أريد نزولها نفسها فهو محال، لأن الصفة قائمة بالموصوف فإذا لم يجز على موصوفها النزول فصفته أولى وأحرى، وإن أريد بنزولها تعلقها بما في السماء الدنيا فتعلق علمه وقدرته بالموجودات كلها لم يزل ولا يزال فكيف يخص بجزء من الليل أو غيره، هذا مع القطع بأنه تعالى يمسك السموات والأرض أن تزولا. فمن قبضته لا تزال محيطة بالسموات والأرضين كلها كيف يحتاج إلى النزول إليها أو يختص تعلق علمه وقدرته بها بزمان دون غيره. وإنما الجاري على القواعد والآيات المحكمة قد بيّنه الله في كتابه بمثلين مثل فيك ومثل خارج عنك.

الأول: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] الآية ومن المعلوم أن النور إذا جعل محيطاً بدوائر شفافة سبعة وثمانية بعضها محيط ببعض، فأول ما يظهر أثره في أدناها إليه وأوسعها دائرة فيراه أهلها، ثم ينفذ شعاعه إلى الثانية فيظهر فيه على حسب صفاته ثم هكذا إلى ثالثة ورابعة إلى السابعة وكل من كان في دائرة

(١) أخرجه أبو داود في سننه عن عبادة بن الصامت، كتاب السنة، باب القدر، حديث رقم (٤٧٠٠). وأخرجه الترمذي عن عبادة بن الصامت أيضاً، كتاب القدر، باب (١٧) حديث رقم (٢١٥٥). وأخرجه الحاكم في المستدرك عن عبد الله بن عباس، تفسير سورة حم الجاثية...، حديث رقم (٣٦٩٣) [ج٢ ص٤٩٢].

منها يرى النور قد نزل إلى دائرته وهو نزول ظهور وتجل لا نزول حركة ونقلة فعلى مثل هذا خرج صفة نزوله سبحانه مع تنزيهه عن تفاوت نسب دوائر الأفلاك إليه، وعن بعده عن بعض وقربه من بعض، بل هو أقرب إلى كل من نفسه، ولا بد لك حينئذ من مراجعة ما تقدم في الاستواء على العرش، فتعلم أن صفة النزول من لوازم صفة الاستواء، وقد تقدم أن صفة الاستواء هو قيامه في عالم الأمر بسر التدبير، فنزوله حينئذ هو نزول روح الأمر بسر التدبير من حضرة الاستواء «وهو العرش» إلى سائر دوائر الكائنات لحكمة التعرف، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ٥] وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] ثم بيّن أن ذلك التنزل لحكمة التعرف بقوله: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

تنبيه: إنما نسب النزول إليه سبحانه، لأن روح الأمر هي مظهر نور التوحيد، قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [النحل: ٢] وقد بيّنا أن نور توحيده هو وجهه سبحانه، فلهذا جعل نزول أمره بمثابة نزوله، ومعرفتها بمثابة معرفته، تحقيقاً لأن «من عرف نفسه فقد عرف ربه»[1].

تبصرة: إذا علمت معنى نزوله في العالم الأكبر، فاعتبر بذلك استواءه ونزوله في عالم الإنسان، وهو: العالم الأصغر، كما سيأتي بيانه.

المثل الثاني: قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١] إلى قوله: ﴿حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٤] فلا تعتقد أن المراد منك أن يرجع بصرك في طباق السماء، فإن الله يعلم أنك لا تدرك ببصرك ذلك، لضعفه وشدة البعد، وتأمل قوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣] أي أن الرحمٰن خلقك وخلق السموات، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾﴾ [الرحمٰن: ١ ـ ٣] الآيات فكما خلق السموات، خلق فيك أمثلة لها، لا تفاوت بين تلك الأمثلة وبينك، فارجع بصرك في تلك الأمثلة: تعلم أنه سبحانه ضرب قلبك لنفسه مثلاً، وذلك أن قلبك هو صاحب دوائر أطوارك، وله تعالى في استوائه عالمان: عالم خلق، وهو عالم حسك، وعالم أمر، وهو عالم غيبك، فإذا أراد تدبير عالم الحس تنزل بروح أمره، وهو نور البصر.

ومن المعلوم عند علماء التشريح: أن للروح الباصر سبع طباق، تتنزل منها إلى

---

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٢٥٣٠) طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت.

أن تصل إلى عالم الحس، وأنت إذا اعتبرت ذلك حكمت بسببه أن نزوله سبحانه منزه، عن النقلة والحركة، ألا ترى أن القلب يدرك بالبصر، ويدرك به البصر الشيء البعيد حساً في آن واحد، من غير تنقل ولا خطور في طباقه، ينفذ من بعضها لبعض، ولا مهلة في تنزله ورجوعه إليه، ولا تفاوت في نسبته إليها.

وقد قال المحققون من أهل النظر: إن العين مرآة القلب، أي من نظر إلى عين رجل رأى منها حقيقة قلبه، ولتحقق الروح الباصر بالقلب اشتبه على كثير من العقلاء، فاعتقدوا أن البصر ليس حساً مغايراً للقلب.

وكذا باقي الحواس، بل هي بمثابة الشبابيك، والقلب هو المدرك منها لما في عالم الحس.

وهذا كله: يكشف لك سر نسبة النزول إلى ربنا سبحانه، بنزول روح أمره، وكونه من أكبر آيات توحيده.

تذكرة: في الحديث: «ما من مسلم يسلم علي إلاّ رد الله علي روحي لأرد عليه سلامه»[1].

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، باب زيارة قبر النبي ﷺ حديث رقم (١٠٠٥٩) وأخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، عن هارون، حديث رقم (٩٣٢٩) [ج٩ ص١٣٠]. جاء في «عون المعبود» لمحمد شمس الحق العظيم آبادي: والحديث أخرجه البيهقي في كتاب حياة الأنبياء بلفظ: «إلا وقد ردّ الله علي روحي» بزيادة لفظ قد. وقال البيهقي في شعب الإيمان: وقوله: «إلا ردّ الله علي روحي» معناه والله أعلم إلا وقد ردّ الله علي روحي فأرد عليه السلام فأحدث الله عوداً على بدء.

قال السيوطي: ولفظ الرد قد لا يدل على المفارقة بل كنى به عن مطلق الصيرورة وحسنه هذا مراعاة المناسبة اللفظية بينه وبين قوله: «حتى أرد عليه السلام» فجاء لفظ الرد في صدر الحديث لمناسبة ذكره بآخره.

وليس المراد بردها عودها بعد مفارقة بدنها وإنما النبي ﷺ بالبرزخ مشغول بأحوال الملكوت مستغرق في مشاهدته تعالى كما هو في الدنيا بحالة الوحي فعبّر عن إفاقته من تلك الحالة برد الروح، انتهى.

قال الشيخ تاج الدين الفاكهاني: فإن قلت قوله «إلا ردّ الله علي روحي» لا يلتئم مع كونه حياً دائماً بل يلزم منه أن تتعدد حياته ومماته فالجواب أن يقال: معنى الروح هنا النطق مجازاً فكأنه قال: إلا ردّ الله علي نطقي وهو حي دائماً لكن لا يلزم من حياته نطقه فيرد عليه نطقه عند سلام كل أحد وعلاقة المجاز أن النطق من لازمه وجود الروح كما أن الروح من لازمه وجود النطق بالفعل أو القوة فعبّر ﷺ بأحد المتلازمين عن الآخر.

ومما يحقق ذلك أن عود الروح لا يكون إلا مرتين لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ انتهى كلامه. (ج٦ ص٢٠ ـ ٢١).

وقد نبهت على الإشكال المتعلق بهذا، وجوابه في «الأمالي» والقصد بذكره هنا: مناسبة لما نحن فيه، فإنه للعبد مع الله حالين: حالاً يجمع روحه عليه، تحقيقاً لتوحيده، وتكميلاً لشهوده، وحالاً يرد روحه عليه: هداية لخلقه وتوفية لحقه، وهذا الجمع والرد من الأسرار الإلهية، نبه به النبي ﷺ على أن ـ حاله في مماته كحاله في حياته ـ لا يزال بروحه عند الله.

وإذا سلّم عليه مسلم، أو جاءه زائر: ردّ الله إليه روحه كما كان يردها في حياته.

وفيما ذكرناه من الروح الباصر كشف لحقيقة ذلك، فإنه ما من نفس إلاَّ ويتجمع فيه الروح الباصر إلى القلب: مؤدّياً إليه ما يراه في عالم الحس، ثم يرد للعين من غير شعور بنقلة ولا كيفية ولا زمان.

فلو حلف الحالف: أن روحه الباصر ما زايل قلبه: لم يحنث، ولو حلف حالف أنه ما زايل عينه: لم يحنث كذلك، ولا يلزم من رد روحه إليه لرد سلام المؤمن المسلم عليه، أن لا تكون باقية عند ربها، ولا من بقائها عنده ألاَّ تكون مردودة إلى نبيه، والله أعلم.

تبصرة: إذا سمعت بنزول ربنا كل ليلة [الحديث] فلا يكن حظك منه النزول في عالم الحس، واعتبر بذلك نزوله سبحانه بروح ذكره إلى سماء قلبك، ألا تراه كيف نبهك على هذا بقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ﴾ [الطلاق: ١٠] ﴿رَسُولًا﴾ [البقرة: ١٢٩] الآية، ثم قال بعدها: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [الطلاق: ١٢] الآية، فبدأ بآية نزول ذكره قبل آية نزول أمره، تنبيهاً على الاهتمام بالأول، وقال في الأول: ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الطلاق: ١١] وقال في الثاني: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الطلاق: ١٢] وذلك يقتضي أن نزوله بروح الذكر يثمر النور والهداية، وأن الله يتولى إخراج العبد من ظلمته، ولا يكله إلى نفسه، وأن نزوله بروح الأمر: يثمر الدلالة والتكليف بالعلم، وكم بيّن من دل، وبيّن من نور وبيّن من حمل وأخرج، وبيّن من حمل وكلّف.

تنبيه: اختصاص نزوله بالثلث الأخير من الليل، له ظاهر وباطن:

فأما الظاهر: فلأن الليل محل النوم، وتوفي الأنفس، ورقيها إلى الله.

وقد ذكر أرباب العلم الطبيعي: أن النوم المعتبر في صلاح البدن ثمان ساعات، وهي ثلثا الليل، فاقتضت حكمة الربوبية تخصيص النزول بالثلث الأخير رحمة للعباد،

وتلطفاً بهم، حتى يكونوا قد تيقظوا، وتأهبوا لقبول ما ينزل على قلوبهم من بركات نزوله سبحانه.

وأما الباطن: فلأن الحجاب هو ليل القلوب، وهو ناشىء عن نوم القلب، وفي الحديث: «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا نام ثلاث عقد، فإذا قام فذكر الله انحلت عقدة، فإذا توضأ انحلت عقدتان، فإذا صلّى انحلت ثلاث عقد»(١).

فالقلب إذا نام بليله عقد الشيطان، فإذا استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فذهب ثلث ليله، فإذا توضأ انحلت عقدتان، فذهب ثلثا ليله، ووضوؤه استغفاره، قال تعالى في قصة نوح: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝﴾ [نوح: ١٠، ١١] فإذا صلّى فصلاته في ثلث الليل الحجاب الآخر، وهي العقدة الثالثة، وهناك يكون نزول روح الذكر عليه، فتنحل عقده كلها، ويكشف له عن حقيقة: «أن الصلاة صلة بين العبد وبين ربه» وعلامة الوصلة: كشف ليل الحجاب، والتلذذ بروح الخطاب.

فصل المجيء والإتيان

ومن المتشابه: صفة مجيئه سبحانه وتعالى وإتيانه، في نحو قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] الآية، وقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝﴾ [الفجر: ٢٢] وهو أيضاً يرجع إلى معنى المحكم، ولا ينافيه، لأن من المحكم قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ: ٣٨] فإذا رددت إليه قوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝﴾ [الفجر: ٢٢] علمت أنه يتجلى بوحدانيته في الروح، وأن المجيء للروح، ونسب إليه تعالى، كما نسب نزول الروح إليه لتجليه فيه.

وتحقيقه: أن الروح هو من عالم الأمر، وقد قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] وقد تقدم ذكر إتيانه في ظلل الغمام، فلا حاجة لإعادته.

تحقيق: اعلم أن الروح الأصلي، الجامع لحقائق الصفات في عالم الأمر في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ﴾ [النبأ: ٣٨] هو روح القدس المحمدي، استواء ونزولاً،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ما روي فيمن نام الليل...، حديث رقم [٢٠٥ ـ (٧٧٤)] وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده...، حديث رقم (٣٠٩٦) [ج٣ ص١١٩٣] والحديث أخرجه غيرهما.

ومجيئاً وإتياناً، وهو صاحب التجلي بنور التوحيد، في مظاهر السموات والأرض، وفي ظلل غمام الشرائع، وصور الأعمال كما تقدم، وهو صاحب الرحم الإيمانية، والنسب المحمدي، بدليل قوله تعالى للرحم: «ألا ترضين أن من وصلك وصلته، وأن من قطعك بتته»(١) مع قوله عليه الصلاة والسلام: «كل نسب يوم القيامة منقطع إلا نسبي»(٢) وإلى رحمه المتعلقة بالعرش: تعرج الأرواح كل ليلة عند النوم ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] الآية، فما كان منها طاهراً سجد تحت العرش كما في الحديث فسجوده وصلته لها، وبسيماها يعرف بدليل قوله تعالى في المتصلين بالمعية المحمدية ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩] وما كان منها غير ظاهر بسبب التمريج الذي حصل له من الشيطان المخلوق من مارج من نار، لم يؤذن له، لأنه قطعها باتباع العدو، فيسجد قاصياً، فبعده عنها: ثمرة قطعه لها، وعدم الإذن له هو: قطع الله له.

تنبيه: هذه هي «الرحم» التي اشتق لها اسم من اسمه «الرحمٰن» صاحب أسماء الله الحسنى، في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] فما من اسم حسن للعبد، إلا وهو مشتق من أسمائه تعالى الحسنى، وإليها مرجعه، واشتقاقه منها على حسب صلته للرحم الإيمانية المحمدية، وعلامة صلته بها: صدق مودته لإخوانه المؤمنين، وقوة ألفته بهم، وانجماعه عليهم، وعلامة قطعه لها: مفارقته لهم.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة بلفظ: «إن الرحم شجنة من الرحمٰن فقال الله من وصلك وصلته ومن قطعك قطعته» (كتاب الأدب، باب من وصل وصله الله) حديث رقم (٥٩٨٨) والحديث أخرجه غير البخاري.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، ذكر إسلام أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، حديث رقم (٤٦٨٥) [ج٣ ص١٥٣] وأخرجه البيهقي في سننه الكبرى، باب الأنساب كلها منقطعة يوم القيامة إلا نسبه، حديث رقم (١٣١٧٤) [ج٧ ص٦٤] وأخرجه غيرهما ونص رواية الحاكم هي: عن علي بن الحسين أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطب إلى علي رضي الله عنه أم كلثوم فقال: أنكحنيها فقال علي: إني لأرصدها لابن أخي عبد الله بن جعفر فقال عمر: أنكحنيها فوالله ما من الناس أحد يرصد من أمرها ما أرصده فأنكحه علي فأتى عمر المهاجرين فقال: ألا تهنوني؟ فقالوا: بمَن يا أمير المؤمنين، فقال: بأم كلثوم بنت علي وابنة فاطمة بنت رسول الله ﷺ إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل نسب وسبب ينقطع يوم القيامة إلا ما كان من سببي ونسبي» فأحببت أن يكون بيني وبين رسول الله ﷺ نسب وسبب هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ [آل عمران: ١٠٥] الآية، مع قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩] فانظر بسبب التفريق: كيف قطع عنهم نسبة المحمدي، بقوله تعالى: ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٩] ونبه على أنهم قد قطعوا عن الله بقوله: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ [آل عمران: ٢٨] فتحقق بذلك قوله: «من قطعك بتته».

إشارة: وصلة الروح للروح المحمدية، والرحم الإيمانية، وسجودها على حسب ما فطرت عليه في أصل نشأتها، من سر «لا إله إلاَّ الله» ورثته من نورها، وإرثها من نورها: تارة يكون بسبب، وهو القيام بحقها، وتارة يكون بنسب، وهو امتزاجها بالروح الإيمانية، في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

فمن قام بحق «لا إله إلاَّ الله» فهو أحق بها، وهو صاحب سبب.

ومن أيد بروحها، فهو صاحب نسب، وقد ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦].

فصل المعية

في الحديث: «كان الله ولم يكن معه شيء غيره، وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء»[1] أخرجه البخاري من حديث عمران بن حصين.

وقد كثر ذكر معية الله لعبده في مواضع من الكتاب والسنة، وهو من المتشابه، ورجوعه إلى المحكم بأن يعلم بأن الله سبحانه في الموجودات قد ضرب لنفسه مثلاً بالواحد في الأعداء.

ومن المعلوم: أن ما من عدد إلاَّ وهو في الحقيقة يرجع إلى الواحد، فالاثنان من شهود الواحد مرة مرة، والثلاثة من شهوده مرة ومرة ومرة، وهكذا جميع الأعداد، فلو طلبت لعدد من الأعداد حقيقة مجردة عن الواحد، لم تجدها، ولسبب ذلك كانت الأعداد لا تتناهى، لأن تجليات الواحد لا تتناهى، ولولا معية الواحد للواحد ما ثبتت الشفعية، ولولا إحاطته بالشفعية ما ثبتت الوترية، وهو الأول والآخر

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] الآية، فمن أشهده الله آخرية معيته له فقد شفعه، فإن أشهده مع ذلك أولية معيته فقد أوتره، «إن الله وتر يحب الوتر»[١] ومن أشهده سر وحدانيته في نفسه ورجوع الأعداد إليه، فقد وحده (ما وحد الواحد إلاَّ الواحد) وبهذا يفهم السر في قوله: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»[٢].

تنبيه: اعلم أنه تعالى، كما أنه واحد في ذاته، فهو واحد في صفاته، وذاته سبحانه منزهة عن المعية، فليست مع شيء، ولا معها شيء، ولكنه مع كل شيء بصفاته.

وكذلك العبد الذي وحده، وأشهده سر الوحدانية في ذاته، بتجلي ذاته المقدسة على سره.

فقد ظهر لك بهذا: أن المعية من أحكام الصفات، فرب عبد يشهده الله معيته له بصفة وصفتين، كقوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] ورب عبد يشهده معيته له مطلقاً كقوله ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: «لا تحزن إن الله معنا».

ومعية الصفات عامة لجميع المخلوقات، وإنما اختصاص الأنبياء والأولياء بالشهود، والتأييد بالروح منها، كما حكي عن أحد أصحاب الشيخ أبي النجا[٣] رحمه الله، أنه كان يقول: قال لي وقلت له، ويكثر من ذلك.

فقيل له: من هو الذي يقول لك وتقول له؟

قال: الله.

قالوا: الله يقول لك؟

قال: نعم. ويأخذ بيدي كلما قمت وقعدت.

قالوا: لك هذا خاصة؟

قال: لا، بل للناس عامة، ولكني أنا أشهد، وهم لا يشهدون.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء...، باب الحث على ذكر الله تعالى، حديث رقم [٥ ـ (٢٦٧٧)]. وأخرجه غيره.

(٢) هذا الحديث سبقت الإشارة إلى تخريجه.

(٣) هو أبو مدين القطب الغوث، توفي سنة ٥٩٠ أو سنة ٥٩٤ هجرية.

تبصرة: رب عبد يخص بشهود المعية، ولا يتعدى ذلك منه إلى اتباعه، كقول موسى عليه السلام لبني إسرائيل: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] ورب عبد يتعدى منه نوره إلى أتباعه، فيشهدون به سر المعية، كقول سيدنا محمد ﷺ: «إن الله معنا» ولم يقل: معي، لأنه أمد أبا بكر بنوره، فشهد سر المعية.

ومن هنا: يفهم سر إنزال السكينة على أبي بكر رضي الله عنه، وإلاَّ لم يثبت تحت أعباء هذا التجلي والشهود، وأين معية الربوبية في قصة موسى عليه السلام من معية الإلهية في قصة نبينا ﷺ.

تربية: إذا أردت شهود نور المعية، فعليك بتزكية النفس، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾ [الشمس: ٩] وفي حديث رواه أبو عبد الله الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول» بسنده إلى عبد الله بن معاوية الغاضري رضي الله عنهم، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من فعلهن طعم طعم الإيمان، من عبد الله وحده بأنه لا إله إلاَّ هو، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه، ولم يعط الهرمة ولا الدرنة، ولا المريضة، ولكن من أوسط أموالكم، وزكا نفسه»[1].

فقال رجل: وما تزكية نفسه؟ قال: «أن يعلم أن الله معه حيث ما كان»[1].

فانظر كيف نبه على أن تزكية النفس: تثمر العلم بمعية الله.

فإن قلت: بماذا تكون تزكية النفس؟

قلت: بلزوم الذكر، قال الله تعالى في الحديث: «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني».

فعلى حسب الذكر: يكون تطهير النفس وتزكيتها.

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ [الأعلى: ١٤] ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى: ١٥] وعلى حسب التزكية يكون شهود المعية.

فصل الحب

ومن الصفات المتشابهة: صفة الحب، وقد نسب في الكتاب إلى الله تعالى بقوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] وبقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الزكاة، باب في زكاة السائمة، حديث رقم (١٥٨٢) وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى، باب لا يأخذ الساعي فيما يأخذ مريضاً ولا معيباً...، حديث رقم (٧٠٦٧) [ج٤ ص٩٥]. وأخرجه غيرهما.

﴿ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] وكذا في السنة، في أحاديث، وقد اختلف علماء الظاهر والباطن في تأويله، والمعول عليه عندهم: أنه يرجع إلى التعبير بالشيء عن ثمراته، فحب العبد لله: محبة إدامته لذكره، وإقامته لطاعته، وحب الله لعبده: إقباله بوجه إحسانه ورحمته إليه، وإفاضة سوابغ نعمه وجوده عليه، وهذا فيه تعطيل لحقيقة الوصف، والذي حملهم على ذلك: أن الحب في الشاهد: عبارة عن ميل القلب، وهو مستحيل على الله سبحانه، لتعاليه عن الحوادث.

والتحقيق: أن الحب ترجع حقيقته مطلقاً إلى سر روحاني، يجمع الله به المتفرق، ويوحد المتعدد، وذلك أن ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] فما من شيء من الكائنات، إلاّ وفيه سر من الواحد قائم به، كما تقدم تحقيق ذلك في «فصل المعية»، ومن المعلوم: أن المخلوقات مختلفة من حيث الأسماء والصور، ومراد الله منها ائتلافها في الرجوع إلى الواحد ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣] وإنما تأتلف الصور والأسماء المختلفة من حيث ذلك السر القائم بها من تجلى الواحد، وليست كلها متساوية، بل هي متفاوتة على حسب قابليتها لتجليه.

وقد جعل الله الحب سراً يكشف حجاب الاختلاف بالصورة والاسم، عما قام بهما من السر المتفق، فيأتلف السر مع السر بواسطة التعارف.

وفي الحديث: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»[1] فإن حصل الكشف من الجانبين: حصل التحابب من الجانبين ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] وإن حصل من أحد الجانبين اختص بالمحبة، ولهذا تجد بعض الناس يحب من لا يظهر عليه أنه يحبه، لأن المحب كشف له عن سر التوحيد المناسب له القائم بمحبوبه، فألفه ولم يكشف لمحبوبه عن السر القائم بمحبه.

وجملة الأمر: أن لا محبوب في الوجود إلاّ الله.

ولقد أحسن بعضهم في التنبيه على ذلك إجمالاً فقال في محبوبه شعراً:

شيء به تسبى القلوب سوى الذي يدعي الجمال، ولست أدري ما هو!!؟

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة...، باب الأرواح جنود مجندة، حديث رقم [١٥٩ - (٢٦٣٨)] وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب الأرواح جنود مجندة، حديث رقم (٣٣٣٦) طبعة دار الكتب العلمية - بيروت. وأخرجه غيرهما.

وقال بعضهم دوبيت:

البلبل يا صاح يشدو بفنن والورق تنوح: يا ترى العشق لمن؟
والكون جميعه غرام وشجن يشا باشك يا من الكل فتن

فقد ظهر أن الحب سر يكشف حجاب الحوادث عن أسرار التوحيد فيجتمع متفرقها ويتحد متعددها ومن توهم أنه الميل أو الإرادة، أو بعض الآثار الحادثة التي يجدها المحب، فليس على حقيقة من أمره، وإنما التبس عليه الأعراض المنفعلة عن الحب بالحب.

واعلم: أنه لا يطلق على العبد أنه يحب الله إلاَّ إذ كشف له عن سر التوحيد مجرداً عن الحوادث فأحبه، فأما إذا أحب السر متوهماً أنه أحب مظهره من الحوادث فلا، وبهذا حصل الالتباس في حقيقة الحب وفي إطلاقه على غير الله وفي صحة إطلاقه عليه.

تنبيه: قولنا: «لا يصدق حب الله إلاَّ بالكشف عن سر التوحيد، مجرداً عن الحوادث» مجمل له تفصيل، وهو: أن كشف تجريده: تارة يكون عياناً، وتارة يكون إيماناً.

فالعيان كحال إبراهيم عليه السلام حيث توجه إليه في الكواكب، ثم في القمر، ثم في الشمس، ثم توجه إليه مجرداً، فقال: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩] الآية.

ونبه على تجريد حبه عن الحادث، بقوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] والإيمان، كحال من أخبره الصادق «أن السر في هذا المظهر». فنشأ له بنور التصديق والإيمان حب كشف له عن ذلك السر: كشفاً إيمانياً.

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] فنبه على أن سر التوحيد، المأذون في محبته: له مظهر، وهو ظلل غمام الشريعة، واتباعه فيها يستلزم اتصافه بها، وهو بمثابة تعرض المحب للمواطن التي يظهر له فيها محبوبه، ومن شأن المتعرض لمواطن الحبيب، أن يراقب وجه محبوبه عند تجليه فيها، فلهذا أمر العبد بالمراقبة، في قوله ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[١].

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

تبصرة: ومن هذا قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] ونحوه من الآيات: يتضمن الإخبار للعباد: أن سر التوحيد الجامع: مظهره: «محمد ﷺ» فمن أحبه فقد أحب الله.

فمن الاتباع من كشف له عن تجرد ذلك السر عياناً كحال، أبي بكر رضي الله عنه في قوله بعد موته: «من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت»[1].

ولشهود ذلك السر، كان يسجد له: الحجر، والبعير، ويسعى إليه الشجر.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً». حديث رقم (٣٤٦٧) [ج٣ ص١٣٤١] ونصه: عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ مات وأبو بكر بالسنح قال إسماعيل: يعني بالعالية فقام عمر يقول: والله ما مات رسول الله ﷺ قالت: وقال عمر: والله ما كان يقع في نفسي إلا ذاك وليبعثنه الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله ﷺ فقبّله قال: بأبي أنت وأمي طبت حياً وميتاً والذي نفسي بيده لا يذيقك الله الموتتين أبداً ثم خرج فقال: أيها الحالف على رسلك فلما تكلم أبو بكر جلس عمر فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه وقال: ألا من كان يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ فنشج الناس يبكون، قال: واجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة فقالوا: منا أمير ومنكم أمير فذهب إليهم أبو بكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح فذهب عمر يتكلم فأسكته أبو بكر وكان عمر يقول: والله ما أردت بذلك إلا أني قد هيأت كلاماً قد أعجبني خشيت أن لا يبلغه أبو بكر ثم تكلم أبو بكر فتكلم أبلغ الناس فقال في كلامه: نحن الأمراء وأنتم الوزراء فقال حباب بن المنذر: لا والله لا نفعل منا أمير ومنكم أمير، فقال أبو بكر: لا ولكنا الأمراء وأنتم الوزراء هم أوسط العرب داراً وأعربهم أحساباً فبايعوا عمر أو أبا عبيدة بن الجراح فقال عمر: بل نبايعك أنت فأنت سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله ﷺ فأخذ عمر بيده فبايعه وبايعه الناس فقال قائل: قتلتم سعداً فقال عمر: قتله الله، وقال عبد الله بن سالم عن الزبيدي قال عبد الرحمٰن بن القاسم أخبرني القاسم أن عائشة رضي الله عنها قالت: شخص بصر النبي ﷺ ثم قال: «في الرفيق الأعلى» ثلاثاً، وقصّ الحديث، قالت: فما كانت من خطبتهما من خطبة إلا نفع الله بها لقد خوّف عمر الناس وإن فيهم لنفاقاً فردّهم الله بذلك، ثم لقد بصر أبو بكر الناس الهدى وعرّفهم الحق الذي عليهم وخرجوا به يتلون ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ إلى ﴿ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾.

ومن الاتباع من حجب عن تجرده، حتى أخبر به في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ﴾ [النساء: ٦٤] إلى قوله: ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

ويحكى: عن بعض الشيوخ: أنه رآه ﷺ في نومه، فقال له: اعذرني يا رسول الله، فإن محبة الله شغلتني عن محبتك، فقال له: ويحك يا مبارك، من أحبني قد أحب الله، ومن أحب الله فقد أحبني.

تحقيق: قوله تعالى: «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته»[1] الحديث، فيه أسرار، منها:

التنبيه على أن الحب سر يجمع المتفرق، ويوحد المتعدد، كما ذكرناه.

ومن كلام المحققين: «الحبيب أنت، إلا أنك غيره».

ومنها: التنبيه على أن العبد تارة يكون محباً متقرباً وتارة يكون محبوباً، وترجع حقيقة التقسيم: إلى شهود العبد، وحظه من تجلي قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة: ٥].

فإن شهد: ما منه إلى الله، فقد شهد رجوع الأمر بسر التوحيد منه إلى الله، فهو محب، وعلامته: دوام ذكره، وتوجهه بالتقرب بالنوافل، وغلبة الشوق، والقلق، والهيمان، ونحوه.

وإن شهد ما من الله إليه، فقد شهد بدء الأمر من الله، وتنزله بروح التوحيد إليه، فهو محبوب، وعلامته: السكون، والاستسلام، ودوام المراقبة.

ومنها: التنبيه على أن المحبوب قسمان: قسم يفنى بمحبوبه، وقسم يبقى به.

فنبه على حال الأول بقوله: «كنت سمعه» ونبه على حال الثاني بقوله: «الذي يسمع به» ونبه بهما، على أنه: لا بقاء إلا بعد فناء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] فنبه على الفنا بقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ [الأنفال: ١٧] وعلى البقاء بقوله: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال: ١٧] وعلى تحقق المحب بالحبيب، بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

دقيقة: ومن ذلك قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١] إلى قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١] الضمير لمحمد ﷺ، والسميع البصير هو الحبيب. شعر:

---

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

رأت قمر السماء، فأذكرتني ... ليالي وصلنا بالرقمتين
كلانا ناظر قمراً، ولكن ... رأيت بعينها، ورأت بعيني

وإنما يتضح قصد الشاعر بتخريجه على ما نحن فيه، وهو:

أنه يشير على أن قمر السماء: من عشاق محبوبته، وأن محبوبته رأته ذات ليلة، فكسته برويتها له نور جمالها، ومحاسن صفاتها، وألقت عليه شبهها، وأعارته اسمها، فأذكرت هذا العاشق بتلك الليالي التي وصلته بالرقمتين، فإنها بوصلها له أفنته عن صفاته، وغلبت عليه بصفاتها، حتى صارت معه كالقمر الواحد، وكلاهما ينظره.

ولهذا قال: «كلانا ناظر قمراً» أي قمراً واحداً، تعدد مظهره، لكونها تنظر بعينه، وهي عين المحبة، لأن المحب صار محبوباً، وهو ينظر بعينها، لأنها أعارته عينها: رآها بها، فكان البصير لها: نفسها.

فصل لفظة عند

ومن المتشابه لفظة «عند» وقد جاءت منسوبة إلى الله، في الكتاب والسنة كثيراً، وهي في اللغة كلمة تستعمل لإفادة الملك، ولإفادة الحضور، ولا اشتباه في استعمالها لله تعالى، لإفادة الملك.

وإنما الاشتباه في إفادتها للحضور.

واعلم أن حضرة الله سبحانه: ليست حضرة مكانية، لتعاليه عن المكان تقدس، بل حضرته وراء حضرات السموات والأرض، قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٩] فعطف ﴿مِّنْ عِندِهِۦ﴾ على ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والعطف يقتضي المغايرة، وهي مع كونها وراء السموات والأرض، فهي مهيمنة على حضرات السموات والأرض، ومحيطة بها، فما من حضرة مكانية إلاّ وحضرة الله محيطة بها ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣].

وإذا تقرر ذلك، فعنديته سبحانه: متعددة بحسب الإضافة، متحدة بحسب الحقيقة.

فأما تعددها، فلأنه ما من اسم من أسمائه تعالى، إلاّ وله في تجليه «عندية» تخصه: يشهدها أرباب القلوب الذاكرة له، وفيها مجالس المناجاة لهم.

ويخلع عليهم فيها خلع الرضا منه.

ومن سلطان ذلك الاسم: تخرج الربوبية لأهله، وتظهر تواقيع الولاية بذكره.

وأما اتحادها بحسب الحقيقة، فعند الله، هو موطن استقرار عباده، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ﴾ [الأنعام: ٩٨] ومعنى ذلك أن عندية الله، ما زالت ولا تزال محيطة بعبده، كما قال تعالى: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ﴾ [الواقعة: ٨٥] ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] ولكن رب عبد دام له هذا الشهود، فهو لا يزال مستقراً عند الله في محياه ومماته ومبدئه وعوده، وإن اختلفت عليه الأحوال.

ومعنى «توفى هذا العبد بالموت إلى الله» ترقيه في مراتب التجلي، وحقائق الكشف، وتعاقب مظاهر «العندية» على روحه: مظهراً بعد مظهر.

ورب عبد شهد في البدء «عندية» الله له، ثم حجب عنه مكانه من الله، بسبب كثرة تخليطه، وظلمة اكتسابه، فذلك مستودع استودعه الله لرسل أسبابه وملائكته الموكلين به، فلا يزال محجوباً إلى الأجل المقدر له، فيرد إلى الله، كما قيل:

وما المال والأهلون إلا وديعة	ولا بد يوماً أن ترد الودائع

وترجع حقيقة الرد: إلى كشف الحجاب، وتجلي إحاطة الله به، كما قال تعالى: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] إلى قوله: ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ٢١ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ﴾ [ق: ٢١، ٢٢] الآية، هنالك يشهد أنه لا مستقر إلا عند الله، وقد نظمت في ذلك:

قد كنت أحسب أني عن فنائكم	ناء، وأن بأرض الله متسعا
فلم يزل لطفكم بي، تحت حجبكم	حتى رفعتم حجاب الفرق فارتفعا
فلاح أني مقيم: ما برحت على الـ	أبواب عبداً، وأن اللطف ما انقطعا

إشارة: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٨] تنبه على العباد المخصوصين من أهل «العندية» والاستقرار.

وقوله: ﴿وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١] خطاب للمحجوبين من المستودعين للحفظة.

ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾ [الأنعام: ٦١، ٦٢] ثم حذر المكذب بذلك، بقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ٦٦ لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ﴾ [الأنعام: ٦٦، ٦٧] ونبه على

أن مستقر الأنباء عنده، وأنه يظهر بزوال حجاب البصيرة، بقوله: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨﴾ [القيامة: ٧، ٨] إلى قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾ [القيامة: ١٢، ١٣].

تنبيه: قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] له ظاهر وحقيقة، فظاهره: أن ما عند العبد من المال والولد وزينة الدنيا: بصدد الزوال والنفاد، وما عند الله من الجزاء ـ على تقدير إنفاقه: باق لا ينفد.

وأما حقيقته: فكل شيء له نسبتان: نسبة عارضة، وهي نسبته للعبد، ونسبة أصلية: وهي نسبته لله.

فمعنى كونه «عند العبد» هو: نسبته إليه، وهو فائت زائل.

ومعنى كونه «عند الله» هو نسبته إليه، وهو باق لا يزول.

والمراد: أن العبد يخرج الأشياء كلها عنه، ويمحو نسبتها إليه، بنسبتها إلى الله، وقد بقيت له.

ومتى نسبها إلى نفسه وقدرته، فقدت، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾ [يونس: ٢٤] الآية، فعند ظن القدرة عليها: أخذت وزالت.

وقال تعالى في ضده: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القصص: ٧] فأرشدها عند الخوف: أن تلقيه من يدها، وتخرجه عن حفظها، فإن الله حينئذ يتولاه بحفظه، ويبقيه برحمته.

تربية: قوله تعالى: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧] فيه تلطف بعبده في استدعائه للإقبال عليه، بالإعراض عن سواه، لأن العبد مجبول على الافتقار للرزق. وإيثاره بالطلب، فلو جعل الرزق: لا يكتسب إلاً بالإقبال على الأسباب: شغله ذلك عن الله، فكان من لطف الله بعبده: أنه جعل ابتغاء الرزق بالإقبال عليه، إقبالاً يشهد به العبد قرب الله منه، وإحاطته به، فيكون العبد بذلك في حضرته وعنده.

ومتى بلغ العبد إلى هذا: جاءه الرزق من حيث لا يحتسب.

ألا ترى مريم لما تركت الأسباب، وأقبلت على الله بلزوم المحراب، كان زكريا عليه السلام ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٧] الآية.

فصل لفظة أين

ومن المتشابه لفظة: «أين» وهي كلمة يستفهم بها عن الحيز المكاني.

وقد ورد بها الكتاب في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] والسنة في قوله ﷺ للجارية: «أين الله؟ فقالت: في السماء».

ومن المعلوم: أن التحيز على الله محال.

فأما «أين» في الآية: فإنها أطلقت لإفادة معية الله للمخاطبين في الأين اللازم لهم، لا له سبحانه، فهو مع كل صاحب أين بلا أين.

وأما إطلاقه في حديث الجارية، فقد تقدم الكلام عليه، في فصل «الكلام على الجهة» و«الإسراء».

فصل
الضحك، والرضا، والغضب

ومن المتشابه: بصفة الضحك والرضا والغضب.

وقد ورد الرضا والغضب في الكتاب والسنة.

وورد الضحك في السنة في أحاديث.

وقد اختلف أهل الحقائق في معنى الرضا في الشاهد، وهل هو حال أو مقام، وأياً ما كان فهو: من مقولة «الكيف» الحادثة، وهو مستحيل على الله، فالضحك في الشاهد معروف، وامتناعه على الله بالنسبة لذاته ضروري، فلذلك كان من المتشابه، ورجوعه للمحكم بما قدّمناه في الصورة، فيكون ظهور الضحك في الصورة، التي يتجلى فيها ربنا على عبده، ولا اشتباه في ذلك، فإن أصل الضحك عند الحكماء ينشأ من إقبال القلب إلى وجهة الصدر، فينفعل لإقباله البدن بالكيفية التي تسمى ضحكاً، والفاعل في الحقيقة لذلك كله هو: الله.

فلا إشكال: أنه إذا أقبل بروح توحيده، على عبده في الصورة المتشكلة، من عمله: أنه يظهر على تلك الصورة بإقباله هيئة الضحك المناسبة للضحك المعتاد، بإقبال القلب.

وينسب ذلك الضحك إليه، كنسبة الصورة والوجه إليه، بالمعنى الذي قدّمناه، ويتضاعف بذلك نعيم الرؤية للمؤمن، وإفاضة جوائز وخلعة الكرم عليه.

وقد ثبت أنه «يلقى المؤمن إذا مات بروح وريحان ورب غير غضبان»(١).

فانظر كيف جعل مظهر لقائه الروح، وفي الروح يظهر لذلك العبد رضاه وضحكه وعدم غضبه، وحقق بقوله: ـ ورب غير غضبان ـ أن الروح مظهر الربوبية وأن العبد بلقائه الروح يلاقي ربه، ولولا ذلك لأشكل ـ على قواعد العربية ـ لأنه عطف الرب على الروح، وأشرك بينهما في تعدي الفعل إليه بالباء على وجه تعديه للمفعول، وذلك ينافي كون الرب فاعلاً ليلقى.

وإذا أنت أخرجته على المعنى الذي ذكرناه، لم يبق فيه إشكال.

والله تعالى أعلم.

تمت الرسالة المباركة، بحمد الله وتوفيقه، ومنّه وكرمه
وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً
والحمد لله رب العالمين

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب الجنائز، حديث رقم (١٣٠٢) [ج١ ص٥٠٤] وأخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، حديث رقم (٤٢٦٢) وأخرجه غيرهما ونص رواية الحاكم هي: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن المؤمن إذا احتضر أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء فيقولون أخرجي راضية مرضية عنك إلى روح الله وريحان ورب غير غضبان فتخرج كأطيب ريح المسك حتى أنهم ليناوله بعضهم بعضاً يشمونه حتى يأتوا به باب السماء فيقولون ما أطيب هذه الريح التي جاءتكم من الأرض فكلما أتوا سماء قالوا ذلك حتى يأتوا به أرواح المؤمنين قال: فلهم أفرح به من أحدكم بغائبه إذا قدم عليه قال: فيسألونه ما فعل فلان، قال: فيقولون دعوه حتى يستريح فإنه كان في غم الدنيا فإذا قال لهم أما أتاكم فإنه قد مات، قال: فيقولون ذهب به إلى أمه الهاوية، قال: وأما الكافر فإن ملائكة العذاب تأتيه فتقول أخرجي ساخطة مسخوط عليك إلى عذاب الله وسخطه فيخرج كأنتن ريح جيفة فينطلقون به إلى باب الأرض فيقولون ما أنتن هذه الريح كلما أتوا على الأرض قالوا ذلك حتى يأتوا به أرواح الكفار».